سمير عبده

التحليل النفسي لشخصيات سياسية عربية

ميشيل عفلق - أنطون سعاده - اللواء محمد نجيب - الملك فاروق الأول

حسني الزعيم - عبد الكريم قاسم - فارس الخوري

كمال جنبلاط - المشير عبد الحكيم عامر

أكرم الحوراني



منشورات دار علاء الدين

التحليل النفسي لشخصيات سياسية عربية

سمير عبده

التحليل النفسي لشخصيات سياسية عربية

ميشيل عفلق
أنطون سعاده
اللواء محمد نجيب
الملك فاروق الأول
الزعيم حسني الزعيم
عبد الكريم قاسم
فارس الخوري
كمال جنبلاط
المشير عبد الحكيم عامر
أكرم الحوراني



منشورات دار علاء الدين

دمشق - الطبعة الأولى ١٩٩٩

التنضيد الضوئي والإخراج الفني : دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة

يطلب الكتاب على العنوان التالي :
دمشق ص.ب : ٣٠٥٩٨
هاتف : ٢٣١٧١٥٨ - ٥٦١٧٠٧١
فاكس : ٥٦١٣٢٤١ - ٢٣١٧١٥٩

• جميع الأفكار والآراء الواردة في الكتاب تُعبر عن وجهة نظر المؤلف.
• في حال أخذ أية مادة من الكتاب يرجى التنويه إلى المصدر.

المقدمة

هذا الكتاب مثير في موضوعه، فريد في اهتماماته، حاولت به أن أخرق المألوف من الدراسات التي تتناول زعماء وشخصيات عربية من نواحي سياساتهم وانجازاتهم، دون الوصول إلى معرفة دوافعهم النفسية أو الوصول إلى شخصياتهم والوقوف على مكنوناتها.

في تجارب سابقة عن سياسيين عرب صدر لي كتابين تناولا (التحليل النفسي لشخصية جمال عبد الناصر) و(التحليل النفسي لشخصية أنور السادات)، وحيث أن هذين الزعيمين لا زال اسمهما لامعاً في الوطن العربي فقد خصصت لكل منهما كتاباً موسعاً.

وكان بودي أن أفرد لكل من حللت لهم شخصياتهم في هذه الدراسة كتاباً خاصاً به، ولكنني آثرت أن يكون لهم ولو فصلاً من كتاب لكل واحد منهم، على أن لا يرى مشروعي هذا النور.

إن كتابّي عبد الناصر والسادات لاقيا قبولاً كبيراً من القراء والنقاد، وهذا ما جعلني أتساءل عن سر رواج كتاب ما؟ هل يمكن ذلك في الإبداع في الأسلوب؟

قد يكون هذا أحد الأسباب، غير أن السبب الرئيسي ليس مرده مدى إتقان الكتابة بقدر الموضوع الذي يدور الكتاب حوله، وكذلك شمول البحث، فالدراسة التي تتناول سيرة إنسان منذ ولادته حتى وفاته، على سبيل المثال، تلذ القارئ العادي أكثر من الدراسة التي تتناول فترة حرجة من تاريخ حياته فحسب، ولعلنا نجانب الحقيقة أن الكتب التي تباع في الولايات المتحدة (وأمامي أرقام إحصائية لها) والتي تعالج سيرة واشنطن أو لنكولن أو فرانكلين روزفلت، مهما كانت مادتها غير أصلية، تزيد في مبيعاتها عن كتاب سيرة يوليوس قيصر أو شارلمان أو وليم الصامت أو نابليون أو هتلر على الرغم مما قد يبذل من جهد في هذه الأخيرة .

ونرى الأمر ذاته في الكتب التي تدور حول الشخصيات البارزة حيث يكون حظها من الرواج أزيد من تلك التي تتناول شخصيات دونها في الأهمية، سواء أكانت هذه الشخصيات الأخيرة من الشخصيات القومية أو الأجنبية.

ويمكن أن نقيس الكتب التاريخية التي لا تتناول السير بنفس المقياس من حيث درجة النجاح التي تلاقيها في السوق . فالكتب التي تعالج تاريخ قطر عربي أو موضوعا من موضوعات الساعة ستروج في هذا البلد أكثر من كتب تساويها في القيمة وتعالج موضوعات تتعلق بأوروبا أو بأقطار صغيرة أو بموضوعات بعيدة عن القارئ العربي .

ويصدق قولنا هذا على الكتب التي تصدر في بلاد عربية وتتناول موضوعات قومية وأبطالا قوميين، فإن حظها من الرواج أكثر من غيرها . كما أن هناك

كتب تتناول قادة سياسيين عرب، وهي قليلة جداً، تتطرق إلى الحياة الشخصية لهذه الزعامات، مثل الملك فاروق، مما أفسح مجالاً واسعاً للوصول إلى دراسة شخصيته بشكل أعمق . ويمكن القول هنا أنه حين أقدم الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية، على طلاق زوجته السيدة وسيلة، أثار ذلك زوبعة غير عادية في الوسط الاجتماعي السياسي، وفي سابقة هي الأولى من نوعها في تاريخ زوجات الرؤساء العرب يعلن الطلاق في شكل بيان رسمي يستند إلى حكم محكمة البداية، وكان ذلك في ١٢ آب عام١٩٨٦ .

ولمن يتناول في التحليل شخصيات من بلاده الواسعة عليه أن يقدم بيان دقيق، مفصل نزيه، عن الأشخاص الغابرين وعن الحوادث والأفكار والنظم والأشياء بقدر ما تسمح به معرفته وأبحاثه التحليلية المبنية على مصادره .

وعلى أية حال فهو حتى هنا تواجهه مشكلات الاختيار: أي أية أشخاص أو حوادث أو فكر أو أشياء يدرس، ثم مشكلات العلاقات بين الأشخاص والحوادث والأفكار والنظم والأشياء. وهو على كل حال، بحكم وضعه الثاني لابد من أن يكّون لنفسه نظرية عن كيفية تطور البشرية أيضاً، وربما كذلك في اعتبارات ذات طابع شخصي تتعلق باختيار مادته وتوكيدها وتوثيقها .

حين وضعت مسودة هذا الكتاب لم يكن بذهني أي اسم معين لسياسي عربي لأحلل له شخصيته، وهكذا سرت بداية بميشيل عفلق مؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي، وكان ثانيهم انطون سعاده مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، ثم اللواء محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر، والملك فاروق

الأول آخر ملوك مصر في القرن العشرين، وكان الخامس الزعيم حسني الزعيم زعيم أول انقلاب عسكري في تاريخ سورية الحديثة، ثم عبد الكريم قاسم الذي قاد الثورة على الملكية في العراق وأصبح أول رئيس جمهورية له، إلى فارس الخوري أول مسيحي يصبح رئيساً لوزراء سورية لمرات والمدافع الأول في المحافل الدولية عن استقلال بلاده، ومن ثم كمال جنبلاط السياسي اللبناني المخضرم وزعيم الحزب الاشتراكي التقدمي، إلى المشير عبد الحكيم عامر أحد قادة ثورة يوليو١٩٥٢ والقائد العام للجيش والقوات المسلحة المصرية وفي عهده حدثت هزيمة يونيو-حزيران ١٩٦٧ ومن ثم انتحاره، وأخيراً أكرم الحوراني الشخصية الكاريزمية في حلبة السياسة السورية .

ولهذا فإن ترتيب الأسماء بقي كما حين كتبت فصول هذا الكتاب وبدون اعتبارات أخرى قد أحاسب عليها، وأذكر أني انتظرت بين الاسم السابع والثلاثة الآخرين أكثر من ثلاثة أشهر وأنا أبحث عمن سيكون صيدي المقبل، فالكتابة عن زعيم عربي قد تكون صعبة، وإنما الوصول إلى تحليل شخصيته يستلزم الوقوف كثيراً على المراجع والوثائق التي تقود إلى هذا التحليل وبالتالي يجب التريث والانتظار للوصول إلى ذلك.

وواقع الأمر أنه كثيراً ما ورد على ذهني أسماء لبعض السياسيين العرب لأحلل شخصياتهم، ولكني لم أتمكن من الوصول إلى المراجع التي تصلني إلى مرادي، خاصة في صعوبة تناول الموضوع، فالغرض من التحليل النفسي هو نفسية الشخص بموافقته لكي نصل إلى علاج نفسي لهذا الشخص، وهذا

الغرض لا يكون موجوداً لدى السياسي الميت، بيد أن دراسة الشخصية لاتقتضي ما يستلزم التحليل النفسي بالكامل، فأنت لا تعالج إنسان ما لتقومه، بل تتناول جملة أشياء صنفت شخصيته السياسية وبالتالي أمكن تحليل هذه الشخصية بجملة عواملها النفسية.

وقد اجتمعت في شخصية الزعماء السياسيين العشرة التي تناولتها ثلاث شخصيات لكل منها، هي الاجتماعية والمثالية والطبيعية، والأخيرة تعبر عن تصور الإنسان لنفسه، والاجتماعية تعبر عما يظهر للناس ، والمثالية هي ما يتمنى أن يكون عليه. والتواؤم بين هذه الشخصيات الثلاث هي التي تنتج الشخصية المتزنة، فكان اختيار الأشخاص مما يعبر عن تباعد وتباين هذا التوازن النفسي.

لعل القارئ يتساءل أخيرا ، كفاك تحليلا نفسيا لأشخاص أموات؟ وواقع الأمر أن الأموات ممن هم على شاكلة من تناولتهم، يصيبوننا بالفزع والمثالية حين موتهم .. إنهم الأبطال والسادة الذين اختارهم الناس، أو وضعوا قسرا في مواضعهم وعلق عليهم هؤلاء آمالهم وتطلعاتهم وأحلامهم، وجسدوهم أملا ورمزا للقوة وقهر الموجات العاتية للحياة وانهم وحدهم سيحققون حلم الإنسان في الخلود.. هؤلاء حين ينهارون أخيرا كسائر البشر ويموتون لأتفه الأسباب ، فإنه تموت معهم آمالنا وتطلعاتنا ، ومن هنا يأتي الفزع والاضطراب ومن ثم الأحاديث والأقاويل والنصائح والإشادة بهم، ثم تكتب الكتب عنهم .

وحسبي أن أقارن هنا بين عمل السياسي والكاتب لترى كيف أن الأخير يبقى عمله محترما أكثر من عمل السياسي. فلو قارنا بين كتابات دستويفسكي ولينين بعد هذه السنوات الطوال من موتهما فإننا لا نغير شيئا من كتابات الأول فيما الثاني حرفت أوعدلت أو نظر إليها بكذا مدرسة سياسية تتصارع مع بعضها البعض، وهنا نرى تعبير الكاتب يبقى أكثر التصاقا بالحقيقة وبنفسيته وبالتالي بشخصيته.

وأنتهز هذه المناسبة لأهدي كتابي هذا إلى الأخ الكبير فؤاد نزهة الذي شجعني على كتابة هذا الكتاب، كما استفدت من ملاحظاته. آملا في الأخير أن أكون قد وفقت في طرح تحليلي لهذه الشخصيات السياسية العربية متحملا كل خطأ قد أكون وقعت به دون قصد مني.

سمير عبده
دمشق – ص.ب ٩١٤

تمهيد

إن التحليل النفسي لشخصيات سياسية عربية هو تحليل لأناس من خانة المشهورين أو الشهيرين أو لمن لهم حظوظ من الشهرة. وطالما دخلنا هذا الكتاب فإن لذلك تحليله وفلسفته الواسعة. فمثلاً تكون سمعة الرجل وشهرته، في عيني المرأة، بمثابة حالة من النور تحجب أخطاءه عن الأنظار . وما يحرزه السياسي أوالطيار أولاعب الكرة من نجاح، يكون في كثير من الأحيان سبباً في نشوء علاقة غرامية.

وفي البحث عن هذه الشخصيات يعتمد لدى الباحث، أكثر من مرجع، منها: السجلات أو الكتب المعاصرة، أو التقارير السرية، والتقارير العمومية، وهي تشمل تقارير ورسائل الصحف وكذلك المذكرات وكتب السيَر الشخصية. ومهما يكن من أمر، فإنه من المهم أن نميز بين نوع المذكرات التي يتعرض المؤرخ في العادة لدراستها وبين السيَر الشخصية التي تكون الوثيقة الشخصية الرئيسة من وجهة نظر العالم النفسي، أو الدليل الشفوي الذي يقدمه الشهود في قاعات المحاكم . فالكائن الحي الذي يقص تاريخ حياته على مرأى أو مسمع من العالم، أو الذي يدلي بشهادته مجيباً على أسئلة المحامي الذي يكون عندئذ قادراً على فحصه فحصاً دقيقاً بما يوجهه إليه من أسئلة، وبذلك يقوم ذلك الشخص بناء على تلك الأسئلة بإضافة أو بتصحيح أوبتوكيد لأقواله الأصلية.. ان ذلك الكائن الحي ندر أن يتوفر وجوده أمام المؤرخ

ولايمكن لمؤرخ أن يسعد بمثل هذا الحظ إلا أولئك الذين يعالجون الشؤون المعاصرة على وجه التقريب.

إن تراتب الأسباب، والمغزى النسبي لسبب ما أو لسلسلة من الأسباب بالنسبة لسلسلة أخرى هو جوهر عملية التعليل، ويوفر ذلك المدخل إلى مسألة العارض في التاريخ. إن شكل أنف كليوباترا وعضة القرد التي قتلت الإسكندر، وموت لينين .. تلك جميعا عوارض (يقال) أنها غيرت مسار التاريخ، ومن العبث محاولة إزاحتها جانبا، أو الادعاء أنها، بطريقة أو بأخرى، لم تخلف أثرا، من جهة أخرى،وبقدر ما كانت أحداث عارضة فإنها لا تدخل ضمن أي تفسير عقلاني للتاريخ، أو ضمن تراتب الأسباب ذات المغزى الذي يعتمده المؤرخ.

ويفترض بعض المؤرخين أن محاولة المؤرخ اكتشاف المغزى ضمن العملية التاريخية تعادل محاولة تقليص (الوجود بأسره) إلى نظام متناسق، وأن وجود المصادفة في التاريخ يحكم على مثل هذه المحاولة بالفشل. ولكن أي مؤرخ عاقل لا يدعي أنه يقوم بشيء فارق من نوع الإحاطة بـ (الوجود بأسره) فليس بوسعه أن يحيط بأكثر من جزء ضئيل من وقائع القطاع أو الجانب التاريخي الذي يقع اختياره عليه.

وعالم السياسي، وعلى غرار عالم العالم، ليس نسخة فوتوغرافية للعالم الحقيقي بقدر ما هو نموذج عملي يتيح له بصورة متفاوتة الفعالية – أن يفهمه وأن يتحكم به ويستخلص السياسي من تجربة الماضي، أو مما يتوصل إليه من تجربة الماضي، ذلك القسم الذي يعتبره قابلا للتفسير والتعليل العقلانيين، وهو يستخلص من ذلك الاستنتاجات التي قد تصلح كمرشد للعمل.

نعود إلى أنف كليوباترا، وعضة القرد التي قتلت الإسكندر ، وموت لينين، وإدمان روبنسون للتدخين فقد كان لها نتائج، ولكن ليس مجديا كفرضية عامة القول أن

الجنرالات يخسرون المعارك لأنهم يفتتنون بملكات جميلات، أو أن الحروب تندفع لأن الملوك يقتنون قروداً مدللة، أو أن الناس يتعرضون للدهس بالسيارات ويقتلون على الطرقات لأنهم يدخنون السجائر. من جهة أخرى، إذا قلت لإنسان عادي أن روبنسون قتل لأن السائق كان ثملاً، أو لأن فرامل السيارة لم تكن في حالة حسنة، أولأن المنعطف لا يتيح الرؤية، فإن ذلك سيبدو له تفسيراً معقولاً ومنطقياً، وإذا ما رغب بالدقة فإنه قد يقول أن ذلك وليس تعلق روبنسون بالسجائر كان السبب الحقيقي لموته.

وتعتبر بعض الترجمات الذاتية مساهمة جادة في التاريخ، فترجمات اسحق دويتشر لحياة ستالين وتروتسكي تعتبر أمثلة رائعة، وينتمي البعض منها إلى الأدب مثل الرواية التاريخية . ولسوء الحظ فإن المؤرخ يعالج عادة حياة أشخاص، كتبوه منذ أمد بعيد، أو بلغة أخرى هم أبعد من أن يتصل بهم اتصالا شخصيا. فمن المستحيل والحالة هذه أن يسألهم عما إذا كانت أجزاء خاصة من تاريخهم مبنية على تجربتهم الخاصة أو على تجربة الآخرين، وفيما إذا كانوا متأكدين تماما من التفاصيل التي يدونونها والتي تناقض أدلة أخرى، ولم هم متأكدون من ذلك، وفيما إذا كانت دوافعهم تتحدث عن الحقيقة عارية أو أنهم يدافعون عن قضية خاصة. وإنه لمن المستحيل أن يطلب إليهم أن يوضحوا المشتملات الغامضة وأن يقدموا الحلقات المفقودة اللازمة لربط قصصهم. ومع ذلك فإن هذا النوع من الصعوبة يزداد، ولا يقل، حدة في حال المذكرات التي نالت شهرة أوسع من غيرها في التاريخ .. ذلك أن مثل هذه المذكرات كان الغرض منها أحيانا أن تجتذب لقراءتها عددا موفورا من الناس، والكثير منها كتب في أرذل العمر عندما كانت الذاكرة قد بدأت تذوي، وعلى ذلك فإن التفصيلات تصبح غير جديرة بالتصديق، وفي كثير من الحالات جاءت تلك المذكرات

بمثابة مسوغات أومجادلات، وعلى ذلك تجعل اختيارها وترتيبها وتوكيدها للتفاصيل مثار شك عظيم :

ولنضرب مثلا في ذلك، فحين نشر ونستون تشرشل مذكراته عن الحرب العالمية الثانية، ارتفعت أصوات الاحتجاج من أمريكا وفرنسا وبلجيكا وغيرها من البلدان المشتركة في الحرب قائلة بأنه لم ينصف الحقائق إنصافا تاما. ومهما يكن من أمر فإن المؤرخ أو العالم النفسي المهتم بالينابيع الداخلية للوعي يمكن أحيانا أن يجد الشخصية المثالية في سيرة ذاتية أغنى بالمعاني من الشخصية الأكثر واقعية التي تكشف عنها أفضل المصادر، ومن أجل الفهم الصحيح للمؤثرات الشخصية والعبادات والخرافات فإن المثالية التي يبديها (المريدون) تكون حقيقة تاريخية ذات مغزى يفوق الشخصية الواقعية.

وعلينا أن نحذر من الخطر الناشئ عن ميل الناس إلى الاعتقادات بأن اتفاق أكثر من رأي، يثبت النقطة التي يتفق عليها ثبات حقيقة واقعة . فلو أن آلافا من المعاصرين لفارس الخوري -مثلا - قالوا بأنه قد كان سياسيا يتقن عمله، وأن نفرا قليلا منهم قالوا بأنه كان سياسيا رديئا، فإن ذلك لن يكون سوى استفتاء للآراء، يبين رأي معظم الأفراد الذين استشيروا في الأمر، ولكن لا يقوم دليلا على أن فارس الخوري كان سياسيا جيدا. ولا ريب في أن أدق استفتاء للرأي العام يقرر درجات الاستفتاء على مسألة ما بين أولئك الذين تمثلهم عينة المقترعين ليس إلا، إذ أنه لايبني، ولايقوم دليلا على صحة الآراء المقدمة أو على حقيقة المعلومات التي يتضمنها الاستفتاء.

ويبدو للمحلل أن أثر العوامل الخارجية على الشخصية قد عرفه عالم السيرة منذ أمد طويل، فكتاب(رينان) عن (يسوع) يوضح هذه النقطة وهي أيضا مضمرة في نظرية

(تبين) عن الجنس، واللحظة، والوسط، والموهبة المساعدة، كالعوامل المقررة في التطورات التاريخية . وقد صارت أهمية الوسط في السنوات الأخيرة مقبولة عموما لدى علماء السيرة المتعمقين في بحثهم أكثر من غيرهم، وصار علم السيرة، إلى حد بعيد، مجهودا يبذل لوضع الفرد في وضع اجتماعي، وسياسي، وثقافي، أو اقتصادي أكثر من مجرد سرد قصة شخصية مبتورة. وعلى أية حال فإن درجة الإغراء لا تزال كبيرة أمام كاتب السيرة ليرى عن طريق نوع من الأنانية المجردة، عصر الشخص الذي يدرسه من وجهة نظر ذلك الشخص، وبالتالي يجعله مركزا عظيما للعمل أو البحث وبالتالي يجد لتصرفاته المسوغات من حيث المدح أو الذم بقدر أكثر من اللازم. وهذا الإغراء يمكن أن يوازنه من ناحية أخرى جهد في سبيل يبذله كاتب السيرة ليتذكر أن الحالة الاجتماعية الثقافية الشخصية ربما تعمل في الشخصية على الأقل عملا يعادل تأثير الشخصية فيها وبها.

وشتان بين فحص الشهرة التي تكتسبها شخصية أو حادثة ، وبين تقدير أهميتها كدافع أو وازع أو قوة مشكلة في الشخصيات الأخرى، أو الحوادث ، فهما شيئان مختلفان. فالشهرة المكتسبة قد تكون أسطورة خيالية بأكملها أو طرافة مبنية على أصل حقيقي ، وحتى أنها قد تأخذ شكل عبادة، كمثل عبادة كونفوشيوس في الصين، وجان دارك في فرنسا ، وايفا بيرون في الأرجنتين، أو شكل ديني كالمسيحية والإسلام حيث يبدو بكل وضوح أن الصدق ، والأسطورة، والخرافة ، قد امتزجت امتزاجا بحيث يتعذر فصلها عن بعض وحيث صار الرمز يحل محل الواقع، وحيث اعتصرت العقيدة والإيمان والتقاليد الكلمة المدونة ، غير أن الشهرة المكتسبة للشخصية التاريخية، ليست بالضرورة مرتبطة بدليل أو أنها في حد ذاتها دليل على أثره المعاصر، على الرغم من أنها قد تكون في حد ذاتها أثرا ملحوظا. فالمسيحية قائمة إلى حد كبير على شهرة

المسيح المكتسبة، ولكنها تاريخيا نتيجة لتأثير بطرس أكثر من يسوع، ولو أن تروتسكي قد تغلب على ستالين في روسيا، فإن ذلك الجزء من العقيدة اللينينية الذي له أكبر أهمية في روسيا، سيكون مختلفا عن ذلك الجزء الذي اختاره ستالين ليكون هو اللينينية الأرثوذكسية. والشهرة المكتسبة قد تكون للتفريخ، سواء أكان ذلك متعمدا أوعفو الخاطر.

ونصل إلى القول أنه لا يكفي أن نبرهن على أن إنسانا، أو فكرة أو حادثة كان له، أو كانت لها، شهرة في فترة ما، إذا كان ذكره أو ذكرها قد جرى في وقت لاحق. فمن المفهوم أن أي شخص أو أي شيء قد يجد التعظيم من لدى معاصريه أو يكتسب شهرة فيما بعد، دون أن يكون له نفوذ في زمنه، وعلى العكس من ذلك فإن الزهور التي ولدت لتتورد دون أن يراها أحد، ربما تكون قد أعطت رحيقها دون علم منا ليستخدم في صنع العسل.

لقد قيل بأن الأهمية التي يجب أن تتبوأها الشخصية التاريخية في السرد التاريخي تتناسب مع الأهمية النسبية التي توليها إياها الأدلة التاريخية المختلفة، وهذا تقريبا يعادل القول بأن الشهرة مرادف للتأثير.

وفي الوقت الذي يوجد فيه الكثير من الترابط بين هاتين الصفتين، فإن ذلك الترابط ليس أمرا ضروريا. فهناك تأثيرات مجهولة تماما بالنسبة للمؤرخين، وهناك غيرها، سواء كانت كبيرة أوصغيرة، لا تتناسب إلا قليلا مع درجة شهرتها، بل هناك أيضا تأثيرات أخرى يبدو أنها تنمو وتتقلص حسب العناية التي يوليها المؤرخ.

إن اختيار زعماء سياسيين عرب لوضعهم في التحليل النفسي يقتضي وضع علامة توضيح في مسيرتهم السياسية، ذلك أن فكرهم بين النظرية والتطبيق قد تختلف، وبسبب وجود مسافة بين الفكر والممارسة، وبين الفكر والفكرة، يجب ألا نحكم على

فكر سياسي كبنية فكرية محض، وإنما يجب أن نضع هذا الفكر في سياق أفكار أخرى وفي سياق الممارسات التي يقوم عليها حاملو هذا الفكر.

كما علينا ألا نحكم على بنية فكرية أو اجتماعية إلا بعد توصيفها وتصنيفها، ثم ننصرف بعد ذلك لإطلاق الأحكام القيمية، وحينما نفعل ذلك علينا أن نكون واعين بما نفعل وبأن التقييم يختلف عن الوصف.

والأسماء السياسية الواردة في هذا الكتاب كان لها التأثير الواضح لأنها هي التي سلطت عليها الأضواء.فالزعيم السياسي يجد الهدف والوسيلة،وينشط الهمم والعزائم، ويقدم القدوة والمثل، ويقيم جو التفاهم والاتصال.

كما أن الزعيم السياسي يؤدي كل هذه المهام أوجلها بشكل مباشر أو غير مباشر إيجابي (اتخاذ قرار) أو سلبي (عدم اتخاذ القرار) ويعتبر الإنجاز المعيار الأوفى قياسا لقوته، لا ينقص ذلك من ثقة الجماهير أو على الأقل حسن ظنها في ديمقراطيته شيئا.

وتحمل الشخصيات المترجم لها في هذا الكتاب الكثير من الملامح النفسية، وظهر التباين الواضح بين هذا المترجم له وذاك. ولكن حمل السلطة في الأوقات غير المناسبة لهذا السياسي، أو تجاهل دعوة المفكر السياسي في الممارسة والتطبيق.. كلها تؤدي – شئنا أم أبينا – إلى نوع من الحصر القهري مثل البوح بكلمات مزعجة، أو تكرار جمل معينة، مثل شعار من شعارات الحزب، والقيام بأعمال غير مقتنع بها لصاحبها، والميل إلى الغيبيات واللجوء إلى قراءة الحظ والاعتقاد بأيام الشؤم وأرقام النحس. فيما البعض ممن ترجمنا لهم كان عملهم السياسي طاقة مدخرة بهم استطاعوا من خلالها أن يفرغوها، فأغنوا عملهم، كما أغنتهم الممارسة وبدوا في صورة الراضين عن أنفسهم وهو ما أبعدهم عن الأمراض النفسية.

وحتى لا نعمم القول سأدع القارئ يتابع فصول هذا الكتاب ليقف على محتوياته.

ميشيل عفلق

في العشر الأول من القرن العشرين (١٩١٠) رأى ميشيل عفلق، المسيحي، الأرثوذكسي، النور في حي من أشهر الأحياء في دمشق ألا وهو حي الميدان، الذي يمثل الوجه الأصيل للشوام ولكلاسيتهم. ومع كبر هذا الحي الذي شكل في ذلك الوقت (خمس) مدينة دمشق، كان هناك بضع مئات من المسيحيين يسكنون حيا من أحيائه في منطقة باب المصلى واسم شارعهم كان الموصلي.

في تلك المنطقة والحي ولد ميشيل لأب كان يتاجر بالحبوب، لأن منطقة الميدان ذات صلات وثيقة بحوران وجبل العرب اللذين يقعا جنوب دمشق، حيث تعيش عشائر عربية أصيلة، تشكل ومنطقتها جسراً يصل الشام بالجزيرة العربية.

نشأ ميشيل وترعرع في ذلك الحي الوطني مع أبوين فاضلين، عرف عن والده اشتراكه في نشاط وطني واعتقاله لمعارضته الانتداب الفرنسي على سورية، وهذا جعله يشب في عائلة ليست بعيدة عن القضايا الوطنية والتداول في الشؤون السياسية.

وكانت المدرسة في بداية القرن العشرين تمثل للكثير من الطلاب مرتعاً للتثقيف السياسي في ظل الاستعمار العثماني والفرنسي، وفي هذا الجو كان ميشيل مستعداً لتقبل ومناقشة المناخ السياسي في البلد.

وبعد الدراسة الثانوية حصل على منحة دراسية حكومية في سنة ١٩٢٨ أتاحت له

قضاء السنوات الأربع اللاحقة في باريس، وهناك في جامعة السوربون تخصص في التاريخ، إلا أن اهتمامه الشخصي شمل مواضيع عديدة، وعلى الأخص الأدب والفلسفة، وأولع كثيراً بأناتول فرانس وأندريه جيد، كما تأثر بشكل خاص بماركس ونيتشه، وقرأ لدوستويفسكي وتولستوي وبرغسون. وفتنته آراء هؤلاء الكتاب كما أدهشته كذلك أساليبهم الأدبية. ومن أساليبهم المختلفة استنبط أسلوبه الخاص المليء بالحيوية، وأن تميز في بعض الأحيان بالتجريدية الرومانطيقية ، وتعرف هناك على أجواء النقمة والاحتجاج التي كانت سائدة آنذاك في فرنسا ضمن الأوساط اليسارية والشيوعية السابقة، وخالط عربا من أقطار عربية مختلفة، وهو ما أتاح له التعرف إلى بعض القضايا العربية، وإلى بعض مشكلات الصراع الدولي. وقد زامله في البعثة إلى فرنسا رفيق أصبح يشكل معه المنطلق لحزب البعث ألا وهو صلاح الدين البيطار. ويؤكد أحد زملائهما وهو الدكتور صلاح الدين المحايري* أن الأثنين قد استهوتهما الأفكار الشيوعية قبل أن يذهبا إلى باريس، وهناك في ظل أجواء النقمة والاحتجاج التي كانت سائدة آنذاك في فرنسا ضمن الأجواء اليسارية والشيوعية، تعرفا إلى ما كان يجري على الساحة الدولية عقب ثورة أكتوبر والأزمة الرأسمالية التي عصفت بالبلدان الأوربية طيلة العشرينات والثلاثينات.

وفي أثناء الدراسة الباريسية تعرف عفلق مع البيطار على الحركة القومية الأوربية في القرن التاسع عشر، وأعجبا أيما إعجاب ببسمارك باني وحدة أمته بقوة الدولة، وحامل ألمانيا إلى العصر الحديث عن طريق ثورة من فوق، انطلقت من قاعدة وطنية هي بروسيا، حيث خلق بسمارك قوة فرضت الوحدة على الدول والدويلات الألمانية

---

* - من مقابلة أجريتها معه في دمشق ١٧/٢/١٩٨٦م.

القائمة. كما أعجب الرجلان بمازيني وغاريبالدي الإيطاليين، واقتبسا من تجربة الحركة القومية في أوربا استنتاجا كان منظروها قد توصلوا إليه، يرى في الدولة المركزية الشكل الوحيد لوحدة الأمة ولوجودها السياسي، وهي تبقى أمة خاما، إلى أن تقوم في دولتها. وآمن عفلق في هذه المرحلة، بأساتذة الألمان في أن المعرفة العقلية ليست هي السبيل القويم إلى اكتشاف ما في الأمة من خصائص صفتها الأساسية الطبيعة الفطرية، وإن الحدس والاستبطان هما السبل الأكثر ملائمة لمعرفة الجوهر التاريخي الحي والحقيقي لأمة من الأمم، لأن فطرة الأمة وحالة الطبيعة الأولى تلازمها أبد الدهر، وإن غطتها الحضارة بما يشوهها أو يطمس روحها الخالدة.

وعاد الأستاذان من باريس حيث التحقا بسلك التعليم الثانوي: عفلق لتدريس التاريخ والبيطار لتدريس الرياضيات. وفي حوالي عام ١٩٤٠ بدأت أفكار عفلق تتبلور وتأخذ شكلها، وكان أن دخل على الخط مفكر آخر كان له دور كبير في بلورة فكرة البعث ألا وهو الأستاذ زكي الأرسوزي. وفي الوقت نفسه أخذت حلقة الأصحاب والمريدين تكبر وهي تدرك حاجة الأمة إلى فكرة قومية تهب للعمل القومي معنى إيجابيا للنضال الوطني، وكان في تلك الفترة مقصورا على إيضاح هذه الفكرة وعلى المساهمة في الحركات الوطنية العامة ضد الاستعمار عن طريق النشرات وتنظيم حركة الطلاب وغيرهم.

وبلورت فكرة (الجماعة) أكثر وأخذت مظهرها العلمي الأول يوم الثورة العراقية، حتى سعى هؤلاء لتأليف جماعة وتوجيه أنظار الشباب إلى العمل العربي الموحد والمساهمة في تحرير الوطن العربي كله.

وفي عام ١٩٤٢ استقال الأستاذان عفلق والبيطار من سلك التعليم احتجاجا على الاعتداء على حرية المعاهد العلمية. لقد كانا في البدء، حتى ما قبل استقالتهما، على

اتصال مع الفئات الوطنية ثم مع الفئات اليسارية، ولكنهما في جميع تلك المساعي والمحاولات كانا يتحدثا بالنيابة عن الشباب ويسعيان للحصول على تأييدهم. وبدخول عفلق والبيطار معترك السياسة ازداد تورط الشبان في النشاط السياسي، مع أن الكثيرين منهم كانوا قد انغمسوا في السياسة وبنفس قومي عروبي. وهذا ما جعل هؤلاء القياديين يرون أن الضرورة تقتضي بالخروج من هذا النطاق التمهيدي البسيط إلى طور جديد هو طور التنظيم الحزبي وتأليف حزب يرتب مشكلات العرب ويجد لها الحلول الصادرة عن النظرية العربية الوحدوية.

وتابع الحزب، أو بلورت الحزب، طريقه النضالي وأراد أن يعبر عنه تعبيرا أوفى فأصدر صحيفته الحزبية في تموز عام ١٩٤٦ باسم البعث، وكان حدثا هاما في تاريخه أنه قاد المؤتمر التأسيسي الأول للحزب في ٧ نيسان عام ١٩٤٧ حيث أقر دستوره ونظامه السياسي.

جاء تأسيس الحزب في الوقت الذي مثلت به دعوة عفلق البعثي إلى الوحدة العربية تقدما سياسيا كبيرا بالقياس إلى ما كان موجود في ذلك العصر، فالحركة العربية الأولى، التي نشأت مع نهايات القرن الماضي ومطالع هذا القرن، كانت قد قبلت بالكيانات والدول التي أقامتها القوى الاستعمارية، وأرجأت المطالبة بوحدة العرب إلى أجل غير مسمى، مستبدلة الوحدة الفورية، مطلبها إلى أوائل العشرينات من هذا القرن، بإقامة وحدات سياسية إقليمية مستقلة هي الدول الوطنية الراهنة، التي أقامتها على أرضية قبولها بالنتائج (القومية) لاتفاقيات سايكس- بيكو، محللة أنصارها بأن الوحدة العتيدة الموعودة ستنبثق لاحقا عنها.

وبقي تأثير البعث محدودا بعد تأسيسه، ولكن مأساة فلسطين بينت بالدليل الحي صحة دعوة الحزب الوحدوية. فشهد انتشارا كبيرا في أوساط الطبقة الوسطى المدينية

أولا ، ثم في الأوساط الشعبية الريفية والمدينية ،إلى أن بلغت أوساط الأقليات الدينية والمذهبية ، التي أرادت طمر نفسها في البحر الشعبي العربي الواسع ، على أساس القومية والاشتراكية والحرية.

ويمكن اعتبار حزب بعث الخمسينات حزبا شعبيا بالمعنى الحقيقي للكلمة ، يجني ثمار سياسة ذات توجه عام وعريض ، تم الالتزام به في معظم الأحيان ، قوامه تنظيم وصول أبناء الطبقة الوسطى الفلاحية والمدينية إلى جهاز الدولة القائمة ، خالقا الشروط اللازمة للانقلاب السياسي ، الذي أخذ الحزب على عاتقه إنجازه بواسطة الانقلاب العسكري.

وفي أوائل سنة ١٩٥٤ اندمج حزب البعث في الحزب الاشتراكي الذي كان يتزعمه أكرم الحوراني ليشكلا حزب البعث العربي الاشتراكي.

وتعززت مكانة الحزب في المرحلة التي استلم بها جمال عبد الناصر مقاليد الحكم في مصر ، وخاصة حين أصبح هذا الزعيم بطلا شعبيا في أعقاب صفقة الأسلحة الناجحة التي عقدها مع الاتحاد السوفيتي في سنة ١٩٥٥ ، وتعززت مكانته عندما أمم قناة السويس وعندما قاوم الهجوم الثلاثي على بلاده سنة ١٩٥٦. ورأى عفلق في عبد الناصر الزعيم المنشود الذي يفتقر إليه حزبه. وهذا ما جعل حزب البعث يسهم في الوحدة التي تمت عام ١٩٥٨ بين مصر وسورية ، وما أعقبها من خلاف مع عبد الناصر وانسحاب الوزراء البعثيين وحل حزب البعث وقيام الانفصال وتأييده من قبل بعض القادة البعثيين ثم قيام الثورة على عبد الكريم قاسم وإسهام حزب البعث العراقي في ذلك ، ومن ثم قيام ثورة الثامن من آذار في سورية عام ١٩٦٣ واستلام حزب البعث للحكم فيها ، وكذلك استلام البعثيين للسلطة في العراق عام ١٩٦٨.

ووصل عفلق إلى أن يكون الأمين العام لحزب البعث في مرحلة استلامه للسلطة في سورية من عام ١٩٦٣ إلى ١٩٦٦ ومن عام ١٩٦٨ إلى حين وفاته عام ١٩٨٩.

* * *

مهما يكن ميشيل عفلق فقد أوجد حزبا سعى أن يكون قائده، فنجح مرة وفشل في مرات أخرى، نجح في أن يضم عناصر طليعية، مدنية وعسكرية تمثل اليسار.

وفي هذا اليسار كان هناك خليط هائل: إصلاحيون وماركسيون وستالينيون ودعاة نظرية الثورة المستمرة (تروتسكي) وماركسيون واشتراكيون يعتنقون نظرية حزب العمال البريطاني القائلة بأفضلية الضريبة التصاعدية على الدخل على تأميم وسائل الإنتاج، البعثيين كافة يريدون أن يكونوا تقدميين، لكن كل واحد منهم تبنى نظرية اشتراكية تتوافق مع قطاعه.

وما رأيناه من هذا التنوع يمكن إرجاعه إلى أن الأستاذ ميشيل لم يطلب إلى اتباعه بذل جهد معرفي أو نظري خاص، بل أمدهم بوصي يقوم على أفكار لا تشكل نسقا أومنظومة عقلية عقلانية قائمة بذاتها، بل تتداخل فيها عوامل شعورية ومكونات لاعقلانية قوية تتيح لمعتنقها دورا شخصيا حقيقيا في تحديد مضمونها. من ذلك، على سبيل المثال، أن عفلق لم يكتب شيئا نظريا يعتد به حول ركائز نظرته كالأمة والقومية والوحدة والحرية والاشتراكية والرسالة الخالدة .. الخ، ولم يقم بأي مسعى معرفي لاكتشاف الجوانب العلمية التطبيقية، التي قد تترتب على سياسته في الواقع العربي القائم ، لذلك فإنه لم يدرس هذا الواقع القائم، بل أصدر من مناسبة لأخرى، توضيحات ظرفية حول أحداث تمر به وتتشابك مع موضوعاته، تاركا لأنصاره ملء عباراته العامة بمضامين وعيهم الخاص.

هكذا بقيت القضايا الأساسية التي طرحها عفلق غائمة ومختلفا عليها، فكان هذا الرفيق البعثي يرى في الأمة حقيقة اقتصادية، وذاك واقعا نفسيا، وذلك كيانا اجتماعيا أو تاريخيا أو دينيا – مذهبيا. وكان يقول أن البعث يريد الاشتراكية، وذاك يرى أنه يسعى إلى العدالة الاجتماعية، أو إلى التعاونية أو إلى الجماعية أو إلى الاقتصاد الحر .. أطلق عفلق شعاراته ومطالبه، ثم شرع يلاحق الأحداث لمطابقتها معها، فكان نهجه أقرب إلى نهج تعقيبي منه إلى نهج استباقي يرى الواقع واحتمالات حركته الفعلية قبل وصولها، فإن حصل وقام بجهد نظري فإنه كان يتبع طريقة البرهان بالنفي كقوله (أن الاشتراكية العربية تختلف عن الاشتراكية الوطنية –النازية – والاشتراكية الشيوعية) معتقدا أن هذه اللاتحديدات الغامضة هي تحديدات تفي بالغرض.

كان عفلق يصف الواقع بدرجة صحيحة في أغلب الأحيان، بعد أن يبسطه ويقلصه إلى واقع حدثي، وكان نجاحه كبيرا، ربما لأنه لم يطرح القيام بتراكيب عقلية ونظرية معقده كشرط القبول في حزبه أو حركته، بل اكتفى بأن أثار في نفوس مريديه الإحساس بأنهم يعرفون كعرف ما هو كامن فيهم، وأنه يعينهم على اكتشاف ما في قلوبهم وعقولهم، ما دام العربي الذي يمنح المعرفة من ذاته ليس بحاجة إلى من يعرفه عليها، وليس بحاجة أيضا لمعرفة الواقع الخارجي، وإنما تمس حاجته إلى من يذكره بما يحتمل فيه كذات خالدة. وهل يفسر هذا نهج عفلق، الذي لم يكن موجها إلى إعادة إنتاج المعرفة، بل إلى تذكير لنا، عبر قراءته للأحداث، بما في ذواتهم، ليصلوا إلى كشف ما في نفوسهم ؟

وهناك نقطة في حياة ميشيل عفلق تتعلق بقلة كتاباته، فهذا الأستاذ عاش حياة سياسية نشطة امتدت لأكثر من ٧٩ سنة، كان خلالها رئيس الحزب ورئيس تحرير

جريدته ومقرر خططهما، لم يكتب سوى نيف أو ألف صفحة مطبوعة، لتكون حصيلة ما وضعه في كل سنة من سنوات عمره السياسي أربع عشر صفحة لا غير؟

كما أن طريقة عفلق في الفكر والعمل السياسي انطبعت بتفاؤل شديد، نابع من منهج يقوم على الثقة بطاقات وجوهر أمة لا مفر لها من تأدية رسالتها الخالدة ذات يوم. هذه القناعة اليقينية التي لم تزخرفها المعارك والخيبات والنكسات والصدمات والهزائم، لامت عفلق طيلة حياته، وإن تطلب التمسك بها قدرا من التحمل والأسى تعاظم بمرور الأيام، حتى أنه حكم عليه بالإعدام عام ١٩٧١، واتهم باليمينية والرجعية، كما اتهم بالانتماء إلى تيار فاشي داخل الحزب الذي أسسه.

وحتى أنصاره، أو أنصار بعض أجنحة البعث حكمت على نفسها وعلى ما آمنت به بكثير من المواقف. كان موقف د. سامي الجندي منها (من كان يظن منا أن يوما يأتي نخجل فيه من ماضينا، نفر منه كذنب اقترفناه عن عمد فيلاحقنا في عيون البشر احتقارا، نكاد ننكر أنا كنا منه، نخفي هويتنا. كانت خيلاؤنا به واعتزازنا، إذن غرورا.)

ولم تكن هذه الاحتجاجات أو الانتقادات بكافة أشكالها سوى احتجاجات الأبناء على والدهم، فهم في ساعة النعم لا يذكرون فضائله وفي ساعة الشدة يشتد احتجاجهم وصخبهم. وإذا كان المثل الذي أوردناه ينطبق على عائلة واحدة فما أدراك إذا كانت هذه العائلة حزبا مؤلفا من مناطق ومفاهيم مختلفة.

وحتى عفلق بعد أن وصل حزبه إلى ذروة عنفوانه وقوته ووصل إلى الحكم في سورية والعراق عانى من البعد عن صنع القرار. وهنا مرة أخرى يمكن تشبيه الأمر برب العائلة، فسيطرة الوالد تكون كبيرة طالما كان أولاده صغارا بحاجة إليه، وحين يكبرون

فالكل يريد الاستقلال عن الوالد وإنشاء بيوت لهم، وتبقى صلتهم بوالدهم صلة النسب، وتطعيم الأفكار التي حملوها عنه.

إن البعض حسب البعث حزبا معصوما عن الأخطاء، كأنه دين من الأديان السماوية، دون أن يتعظوا بتجارب الأحزاب الأخرى، فالأفكار تنتعش في مناسبات تناسبها وتهبط في مناسبات أخرى.

ربما كانت لعبة قاسية اكتشف عفلق خلالها أنه لم يفلح في فهم بنى ومكونات الواقع التي نسفت مشروعه، والتي اعترف هو نفسه فيما بعد أنها نسفته بالفعل. لم يجد ميشيل لهذه البنى والمكونات مكانا في رؤيته السياسية الشعارية، بل إنه لم يراها على الإطلاق، لشدة ما كانت مفاهيمه عن القومية والمجتمع عائمة وإجمالية ولاتاريخية.

هكذا اكتشف ميشيل عفلق بعد فوات الأوان إمكانية أن تترتب على مشروعه سياسات ووقائع رفض على الدوام الاعتقاد بأنها قد تتمخض يوما عنه، فإذا به لايجد ما يفعله حيال (المفاجأة) سوى الصمت الذي لازمه في السنوات الأخيرة الطويلة لاستلام حزبه السلطة في بلدين عربيين.

ربما كان خطأ الأستاذ فيما وصلت إليه أموره أنه لم يعتقد أن للأمة الخام دورا في توحيد نفسها وخلق دولتها، بل اعتقد بالأحرى أن الدولة هي التي ستخلق الأمة، ما دامت الأمة توجد على الصعيد السياسي وحده، وتعبر عن وجودها على صعيد الدولة دون سواه، من خلال الدولة.

لقد قامت طروحاته على وهم الاعتقاد بان العلاقة بين المعرفة والواقع هي علاقة ذهنية يقوم بها فرد متفرد، ولا شأن لها بأية فاعلية اجتماعية وبشرية حية فافتقرت العفلقية إلى المقومات الحقيقية للفاعلية السياسية التغييرية، وأسهمت في إعادة إنتاج

واقع زعمت أنها تريد تغييره، كما أضفت طابعا غيبيا عن قضاياه الراهنة والملموسة، بدل أن تنزع عنها القشرة الضبابية والغيبية التي تغلفها، وتكشف طابعها الواقعي – العملي الذي هو عماد لأي تغيير لاحق.

كان عفلق يفضل أن يسمى رسميا الأمين العام لحزب البعث، وبصورة غير رسمية فيلسوف الحزب. وعلى الرغم من أنه استحق اللقب الثاني فإنه حاول أن يلعب دور زعيم الحزب وفيلسوفه في آن واحد، ولكنه فشل في الدور الأول.

ويبقى السؤال حائرا فيما أعلن عند وفاته في باريس يوم ٢٣ حزيران ١٩٨٩ من أنه أسلم بعد أن تجاوز من العمر التاسعة والسبعين. إن عفلق المسيحي الأرثوذكسي لم يكن بعيدا عن روح الإسلام، وقد كتب في ذلك ما يثبت رأيه.. ألم يكتب عفلق بأن المهمة التاريخية للإسلام كان أن يتبوأ العرب في لحظة معينة من تاريخهم، الانتقال من مرحلة قبلية إلى مرحلة قومية وأن يؤكد نداء تاريخيا أصيلا فيهم للعالمين .. هذا الدور الوسائلي للإسلام، كتابع ثقافي للعروبة، قد اكتمل الآن، وباتت القومية هي التي يكون في وسعها وحدها تأمين البعث، بعث الكيان، الكنه العربي. فبالنسبة لرجال الدين من كافة المشارب، كما بالنسبة للمسلمين من غير العرب، كان المقصود بوضوح تام، خفض العائدية الدينية بالنسبة للعائدية القومية، وهو إنقاص لم يكن معظمهم بالتأكيد مستعدا للقبول به.

يضاف إلى ذلك أن ميشيل عفلق، منظر البعث، كمسيحي أرثوذكسي شرقي العقيدة، يبدو تحد لا يحتمل في نظر خصوم البعث الذين يأتي في مقدمتهم زعماء الدين، لقد كان أمرا مهيجا حقيقيا أن يكون بالنسبة لهم أن يستأثر بحق إعطاء النصائح المتعلقة بالدين الإسلامي للمسلمين، وأن يقحم أهميته الاجتماعية والسياسية في مجال الأخذ والرد، وأن يتطلع إلى استبداله بأيديولوجية أخرى. وما تزال البعثية

تصطدم إلى اليوم بهذا النمط من ردود الفعل، على الرغم ما أشيع عنه مـن انـه اعتنـق الإسلام. والأمر ليس واضحا ما إذا كـانت هـذه الخطـوة الاسـتثنائية مـن جانبـه، أي اعتناقه الإسلام في سن متقدمـة، ترمـز لبعـض البعثيـين إلى فشـل العروبـة العلمانيـة، أوأنهم اعتبروها خطوة فردية.

وربما أخفق عفلق في محاولته تحقيق معظم أهدافه، رغم جـهده في ذلـك، مـع أنـه وهب المقدرة على تهيئة الأهداف، ولكنه افتقر إلى القدرة على تنفيذهـا. ومـن الصعـب جدا تقييم دوره وإصدار حكم قاطع على إنجازاته.

عاش ميشيل عفلق حياة متواضعة تميزت بالاقتصاد في الإنفاق، كما تميزت بزهـده بالسلطة، ويمكن الحكم على ذلك من رفضه غير مرة تولي منـاصب سياسـية، علـى أن هذا العزوف والحياء ربما يترجم عن كونه رغبة في ممارسة نفـوذ سياسـي. صحيـح أن عفلق لم يرغب قط في أن يصبح رئيسا للوزراء، بـل كـان دائمـا يحـث صـلاح الديـن البيطار على تولي هذا المنصب، لأنه وإن لم يسيطر عليه سيطرة مباشرة أبان وجـوده في كرسي الحكم، إلا أنه كان يؤثر فيه تأثيرا ملحوظا، وهـو بذلـك يشـبه أم الملـك الـتي لاتتظاهر بالحكم بينما هي تمارس السلطة من وراء العرش. ومع أنه في الأساس إنســان مفكر، إلا أنه لا يخلو من طموح سياسي، فبصرف النظر عن تفانيه وإخلاصه للحــزب فإنه كان في تصرفه عرضة للاتهام بالتدليس والدجل. ومع ذلك فإنه لم يستخدم نفوذه أو نفوذ حزبه من أجل الحصول على منافع مادية.

ولو كان عفلق يتمتع بصفات الزعيم الموهوب لتمكن على الأرجح من أن يلعب دورا بناء أكبر في السياسة العربية. ومنذ الستينات من عمره عاش فيما يشبه العزلـة، دون أن ينهي عمله السياسي، مرسلا توجيهاته إلى أبنائـه مبديـا استعداده لتقديـم النصـح والإرشاد لأي سياسي يتوسم فيه تنفيذ أهداف حزبه بالوسائل السلمية أو الثورية.

وقد تمتع هذا الأستاذ بعنصر المغامرة الذي ليس بالضرورة نتاج انتهازية سياسية أوافتقار إلى الصدق أو الإستقامة، بل لعله نتاج المبدأ الثوري الذي بدأ به حياته السياسية الذي يرى فيه ضرورة لا غنى عنها لتحقيق الأهداف.

* * *

تلك هي أهم الأفكار والملامح العامة التي سادت فكر وشخصية الأستاذ ميشيل عفلق، مؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي، المسيحي الأرثوذكسي، المسلم في شهادة الوفاة، السياسي المفكر من الطراز الحالم الرومانطيقي، الذي أراد أن يوجد شيئا جديدا حمله كما حمل السيد المسيح صليبه.

شخصية ميشيل عفلق خلقت لا لأن تكون أداة سياسية تحرك وتسير هذا البلد أوذاك في مشاكله اليومية وفي مفاهيمه الاجتماعية المتوارثة، شخصية مثل هذه عندما اعتقلها الزعيم حسني الزعيم عام ١٩٤٩ طلبت الاسترحام والعفو واعدة بالانسحاب من ميدان السياسة خلافا لما يتمتع به الأبطال الوطنيون من عزة وكبرياء وكرامة. ولم تكن هذه المرة الأولى التي يسجن فيها عفلق، فقد سجن قبل ذلك مرتين: الأولى سنة ١٩٣٩ والثانية سنة ١٩٤٨، إلا أن السلطة كما قيل هددته هذه المرة بالتعذيب أو أنها عذبته فعلا. لكنها لم تكن المرة الأخيرة التي سجن فيها عفلق، فقد عاد وسجن فترات قصيرة في سنة ١٩٥٢ وسنة ١٩٥٤ في عهد الشيشكلي، الذي ما أن أطيح به في سنة ١٩٥٤ حتى أفرج عن عفلق ليخرج من السجن بطلا. لقد زادت هذه المحن والتجارب من مركز عفلق ومكانته لان النفي والسجن كانا يعتبران نوعا من الكفاح البطولي ضد الأنظمة التي لا تتمتع بتأييد الشعب، وهو كفاح كثيرا ما أسهم ولو بصورة غير مباشرة في كثير من الانقلابات.

وللتذكير دخل عفلق الوزارة عام ١٩٤٩ ليبقى فيها مدة لم تتجاوز ثلاثة أشهر، أدرك بعدها أنه لم يخلق للمراكز التنفيذية.

إذن، عفلق دخل السياسة كمنظر أكثر من كونه منفذ، وبين النظرية والتطبيق كانت المعاناة، له ولمن آمن به بقدسية.

ولكي يفهم واحدنا سلوك الآخر عليه في دراسة تركيب شخصيته النفسية أن يركز على الدوافع والإدراك وثقافته ومعتقداته.

بادئ ذي بدء لم يقال عن عفلق أنه زعيم أو قائد أو ما شابه من ألقاب العظمة وقيادة الجماهير، وما قيل هو (الأستاذ)، هذا الإنسان الخجول بطبعه، المنطوي على نفسه إلى حد ما، أدرك في فورة وعيه وهو في باريس تيارات قلبت مفاهيم السياسة والعالم في وقتها، وقد مررنا عليها حين استعراض حياته. إذن عفلق وجد ضمن ظروف ومكان كان مهيئا أن يبحر به، ولم يكن التجديف له بل جلس في السفينة ووجد من يقوم عنه بالواجب، فكانت السفينة تأخذ مسارا متقلبا على قدر ما كان يريد جازقها أن يقودها به، قد يكون هذا (الربان) – إذا صحت التسمية – وفق في أوقات أو فشل في أوقات أخرى، ولكن الممارسة غير النظرية، وهي أكثر قربا من موقع المرض الفعلي، وبالتالي قد تقود إلى مواقف ربما تبدو عكسية لمفهوم النظرية، وهذه هي نقطة ضعف المبادئ التي آمن بها عفلق وصعب عليه تنفيذها من خلال أدوات اختلفت معه في التطبيق ولم تختلف في النظريسة. وبالتالي فإن شخصية كهذه، أقرب ما تكون إلى الشخصية الأدبية بما تحمل من رومانسية، تجرفها صور الشعر أكثر مما يستوقفها مضمونه، هي أقرب للخيال من الواقع .. الواقع الممارس الذي قد يقلب مفهوم النظريات ويبدلها .

كثيرا ما نقرأ عناوين لأحزاب لا تتضمن سلوكياتها ما تحمله من شعارات، وهذه

المسألة ليس بها غموض، فإما أن الشعار وضع لامتصاص عناوين أخرى أشد منها قربا للواقع، أو أن التطور الحزبي لهذه المجموعة أوجد ممارسات مغايرة لهذه الشعارات.

في كل ذلك ضاع عفلق حين بدأ حزبه في التقرب من السلطة، فإذا كان هذا الأستاذ قد انطلق بفكرته من المفهوم القومي للشعوب برموز قليلة تحمل أسرارا، فقد فسرها كل على هواه، أقلمها مع الظروف حتى ذابت بين تناحر التيارات العقائدية حتى لشك البشر بوجودها أصلا.

هذا الأستاذ عاش محبطا فيما زرعه، لأنه هو في الأساس حين أنجب حزبه لم يحسب حساب الزمن وبالتالي أنجب حزبا وترعرع حينا بدفء والده وحينا من توجهات نفسه، حتى بدا أحيانا أن هذه الغصون لا تمت إلى أصلها بصلة، كما شهدنا من خلال التيارات والأجنحة القومية والماركسية والمادية والتروتسكية .. الخ التي هي بالأساس تصارعت فيما بينها صراع الفناء حتى تبقى.

ميشيل عفلق الأب المغلوب على أمره، الضعيف المقاومة، المنظر الجيد، لم يستطيع أن يأتي بأية مبادرة لتجاوز الماضي، لأنه هو ذاته بقي أسيرا له لعمر مديد وهو ما جعل سهام النقد تصب عليه.

إن النظريات والعقائد التي حملها أصحابها في فترة ما ضعفت على طول مدة الزمن الذي عاشت فيه، وبقيت في نجوميتها حين نكس الدهر أصحابها بوفاتهم أو بسبب ما . وعفلق ربما انتهت نظرياته حين استلم رفاقه زمام السلطة وبقي شاهدا على تطبيقها، وهو الرجل الحريص على ذاته، بحكم تركيبه الشخصي، فكان مسيرا وليس مخيرا، وهو يشهد التحولات التي طرأت على مفاهيم البشر والدول منزويا بعيدا عن الشخصية الكاريزمية.

وربما كان جمال عبد الناصر معاكسا له، فهذا الرجل دخل الممارسة دون النظرية

وأوجدها بحكمة لها . وحَكَمَ مُنتصراً أو مُنهزماً ولكنه بالمحصلة أصبح بطـلاً كاريزميـاً لم تمح صورته من أذهان الناس، لا بـل قـد تكـون انجلـت أكـثر في حكـم الظـروف الدولية الجديدة، التي أعادت الاعتبار أكثر فأكثر لمثل هـذا الزعيـم. فيمـا عفلـق بقـي اسمه كمؤسس لحزب سياسي وصل أفراده إلى السلطة في بلدين عربيين دونما أن يكون لوصايا (الزعيم) الاعتبار الأول فيما جرى.

إن عفلق لم يكن مهيئاً ليكون الزعيم أو القـائد، فـهذه الصفـات لهـا أربابـها ولهـا خصوصيتها، إنه شخصية تغلفها أفكاره ونظرياته ولولا أنها حملت الطـابع السياسـي أو أطعمت من خلال الرفاق الآخرين لبقيت أفكار إنسان مفكر لا يريد الذهاب بأفكـاره أكثر من الإصلاح.

ورغم ذلك، فـهذه الشـخصية تبـدو مسـؤولة عـن أفعالهـا وتصرفاتـها، فـلا يوجـد اضطراب مرضي فيها وإنما هي نتاج تدليل مفرط أو قهر شديد في التنشئة الاجتماعية، وشعور محبط بعدم الأمان والاستقرار مع التأكيد على مسؤوليتها، عن أفعالهـا، لأنـها ليست شخصية مرضية، وهي تتسـم بالشـك الشـديد في كـل شـيء، لا تؤمـن إلا بمـا تعتقده ، مثيرة للانفعال ولكنها غير مؤذية لذاتها وللآخرين.

المراجع:

١. حرب فرزات : الأحزاب السياسية في سورية منشورات دار الرواد – دمشق ١٩٥٤

٢. سامي الجندي : البعث دار النهار للنشر – بيروت ١٩٦٩

٣. مجيد خضوري : عرب معاصرون – أدوار القادة في السياسة الدار المتحدة للنشر – بيروت ١٩٧٣

٤. مطاع صفدي : حزب البعث دار الطليعة – بيروت ١٩٦٤

٥. لورانت شابري ، أني شابري : سياسة وأقليات في الشرق الأدنى : الأسباب المؤدية للانفجار ترجمة د. ذوقان قرقوط مكتبة مدبولي – القاهرة ١٩٩١

٦. نيقولاس فان دام : الصراع على السلطة في سورية دون ذكر اسم المترجم مكتبة مدبولي – القاهرة ١٩٩٥

٧. ادوار صعب : البعث – حزب أم حكم مجلة القضايا المعاصرة الجزء الأول /المجلد الأول/ تموز ١٩٦٩ بيروت ص١٣٣

٨. عبد الله الوزان : وداعا ميشيل عفلق مجلة زوايا باريس العددان ٢/٣ أيلول ١٩٨٩ كانون الثاني ١٩٩٠ ص٥٦

9- Hourani,A syria and Lebanon, P .144 ,Hourani, Mimorities in the Arab World , P.36 , Biegel , Minderheden in het Midden Osten P.112

أنطون سعاده

حالة أنطون سعاده وحزبه.. الحزب السوري القومي الاجتماعي حالة تدرس للوصول إلى شخصية (الزعيم) فيها مؤسس الحزب .. أنطون سعاده.

ولد أنطون سعاده عام ١٩٠٤ في البرازيل لوالد كانت مهنته الطب ويدعى خليل سعاده، وقد ذهب إلى مصر من لبنان في أواخر القرن التاسع عشر حيث يُذكر كمؤلف لمعجم انكليزي عربي مؤلف من مجلدين، وهاجر إلى أمريكا اللاتينية في نهاية ذلك القرن مصطحباً معه إيماناً بالقومية السورية التي كانت فكرة سياسية رائدة في بيروت في الثمانينات من ذلك القرن .

كان مقدم أنطون إلى الشرق الأدنى في أواخر عام ١٩٢٠ كشاب يافع حيث عمل بعدئذٍ في الصحيفة الدمشقية (الأيام)، ولكن سورية كانت في ظل الانتداب الفرنسي تختنق وتعاني من فقر فكري. وهكذا سرعان ما انتقل إلى بيروت حيث البيئة أكثر ملاءمة، ولم يكن لديه أي مال أو مهنة فكان بصعوبة يعيل نفسه من إعطاء دروس خاصة في الألمانية . وكانت جامعة بيروت الأمريكية مركزاً فكرياً لذلك البلد، ومع أنه لم يكن لسعاده أي ارتباط سابق بالكلية فإنه غالباً ما وجد طريقه إلى غرفة الإدارة العامة حيث كان يقدم الشاي في الساعة الرابعة بعد الظهر. وفي ذلك الوقت كان

أنطون سعاده يرخي لحية كبيرة كلحية القس وكان محط قدر وافر من السخرية بسبب مظهره والإصرار العنيد الذي دافع به عن آرائه، وفي تلك الغرفة كان يتحدث لساعات ويذهب للسباحة مع الطلاب وبهذا جمع أتباعه الأول.

ويرجع البعض إلى سعاده تأسيسه في تشرين الثاني من عام ١٩٣٢ هيئة سرية من خمسة أعضاء ملتزمة بقسم الإخلاص له ودعاها بالحزب القومي السوري، وبعد عدة شهور لمس بوادر نشاط معاٍ للحزب بين حلفائه فقام بحل هذا الجمع وقام في نفس اليوم بإصلاحه بإبقاء عضوين فقط . وفي عام ١٩٣٥ كان رحاب الجامعة ممتلئاً بالأتباع الملتزمين حيث جند آلاف منهم في سورية ولبنان في تنظيم قطري متسلسل تحت سلطة سعاده المطلقة، وفي ذلك العام خرج من السرية إلى العلن وعقد مؤتمره الأول بكامل أعضائه، وأثار في الحال اهتمام السلطات الانتدابية الفرنسية – وفي العاشر من كانون الأول من عام ١٩٣٥ قبض على سعاده وبعض القادة الحزبيين الآخرين وأودعوا السجن .

وفيما كان في السجن ينتظر محاكمته لتأسيسه تنظيماً تآمرياً، كتب سعاده رسالة بناء على طلب محاميه (حميد فرنجية) يبين فيها الأسباب التي دعته لتأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي. وفي هذه الرسالة المؤرخة في ١٠/كانون الأول /١٩٣٥ ،شدد على أن اهتمامه بقضية شعبه القومية لم يكن بتأثير حادث معين، سواء أكان محلياً أو دولياً ، ولكن على العكس، ذروة فترة طويلة من التأمل والدرس حيث ابتدأت عندما كان لم يزل حدثاً في لبنان .

وصيغ المبدأ الأول للحزب كما يلي (سورية للسوريين، والسوريون أمة تامة).

على أن مذهب القومية السورية هذا زخرف بكثير من الغيبيات، وتحدث سعاده عن (الإرادة العامة للأمة السورية) التي تبحث عن الحرية والواجب والنظام والقوة،

و(ارتباط عضوي) بين الأمة وحدودها الجغرافية الوطنية، وبالوحدة العضوية للمجتمع السوري التي لا تستند على العرق أو الدم بل هي نتيجة (التاريخ الطويل لكل الناس الذين استقروا في هذه الأرض وسكنوها وتفاعلوا مع بعضهم وأخيراً انصهروا في شعب واحد).

والمبدأ الأساسي للحزب هو الاعتقاد بقومية سورية مميزة، أما هدف الحزب الرئيسي فهو (وحدة الأمة السورية المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي) و(الوطن السوري) عند الحزب يمتد من جبال طوروس في الشمال إلى قناة السويس في الجنوب مع جزيرة قبرص.

والأمة السورية عبارة عن تركيب للفينيقيين والشعوب العربية وثقافتها. ولقد بشرت هذه الحركة بفلسفة جديدة احتوت معنى تبشيرياً يتجاوز القومية السورية ويشتمل على أهداف اقتصادية ترفض الرأسمالية الغربية والشيوعية الروسية وتترفع عنهما، وقد دعا برنامج الحزب القومي السوري إلى تأميم الموارد الطبيعية والإطاحة بالطبقة الإقطاعية.

وكانت هذه الحركة – على ما قال ميشيل عفلق لباتريك سيل– (كلها خليطاً عجيباً من العصرية العلمية مع شيءٌ ممن في القدم بل أثرى، مع بعث الماضي المحلي وأحقاد تبلغ ألف عام سناً، فبين الحركات العديدة التي جاءت لبعث العرب من جديد كانت هذه واحدة أجهضت وأضاعت نفسها في رومانتيكية عليلة، ولربما كان ذلك لأن عقل سعاده اتجه نحو الماضي وكانت أيضاً حركة يمينية متطرفة تبشر بفلسفة نظام شريرة تتناقض ومصالح المستخدِمين والمستخدَمين مستهينة وعن قصد بحقوق الطبقة العاملة متعللة بأن معالجتها سوف تؤدي إلى الفوضى).

إن محاكمة سعاده التي جرت عام ١٩٣٦ قد أدت إلى ازدياد شهرة الحزب، وكان

بالغ البعد عن التوبة، فعندما دعي في المحكمة باسم أنطوان سعاده لم يجب حتى استبدل الاسم بأنطون (حين مناداة شخص باسم أنطون في لبنان يقال له أنطوان)، وعندما اتهم بالتآمر على الدولة جابه المدعى بقوله الافرنسيون أنفسهم هم المتآمرون ما داموا قد وقعوا اتفاقية سايكس – بيكو، وفيما بعد استعطف المندوب السامي لإقامة الوحدة السورية-اللبنانية وهذا ما أدى إلى تنكيل بالحزب جديد قبل من السلطات الحاكمة.

وغادر لبنان في حوالي سنة ١٩٣٨ ماراً بإيطاليا وألمانيا بشكل عابر ووصل إلى أمريكا الجنوبية قبل اندلاع الحرب، وقد اتهمه الافرنسيون بالإذاعة من راديو برلين خلال الحرب وباستلام رشوات ألمانية، ولكن التهمة بقيت بلا دليل. وبعد تسع سنوات وفي الثالث من آذار من عام ١٩٤٧ عاد إلى بيروت من البرازيل ليجدد تحريضه من أجل وطن سوري. ولم تضعف الحرب من عزيمته وحماسته، بل على العكس فقد أقنعته بمزيد من البحث في التاريخ القديم.

وحدثت اصطدامات في بيروت مع بداية شهر حزيران من عام ١٩٤٩ بين رجال سعاده ومنافسهم الأول ، وهو تنظيم شبه عسكري آخر معروف باسم الكتائب اللبنانية، أسسها في عام ١٩٣٦ماروني شاب مقتدر هو بيير الجميل، وقد أقام الكتائبيون من أنفسهم أبطالاً للاستقلال اللبناني إزاء تهديد (سورية الطبيعية) التي جاء بها سعادة . وكانت في قوة سعاده المتزايدة واستعداداته العسكرية داعياً لاهتمام الحكومة، ومن المحتمل أن السلطات، وكما يدعي الحزب القومي السوري، قد دفعت عن قصد الكتائب لتشن هجوماً مسلحاً على مكاتب صحفه ونشراته المطبوعة في محاولة لتدمير سعاده. ولكنه فر سليماً من البناء واختفى، فاستولت الشرطة على مكاتب حزبه وادعت. الحكومة أنها قد أمسكت على وثائق مدعمة من الصهيونية.

وجرت اعتقالات عديدة ولكن سعادة هرب عبر الحدود إلى سورية ولم يعد أمامه الآن من اختيار سوى العصيان المسلح.

ولعل انقلاب حسني الزعيم الناجح الذي تم في دمشق عام ١٩٤٩ هو الذي دفعه إلى التفكير أحياناً بالاستيلاء على السلطة في لبنان كخطوة أولى نحو الاتحاد السوري القومي. لقد كانت المعارضة السياسية في لبنان تجد في دمشق دعماً لها إزاء حكومتها. وقد ارتكب سعاده نفس الخطيئة بسيره في نفس الطريق، إذ قابل الديكتاتور السوري فرحب به وشجعه وتدارسا سوية خططاً لانقلاب في لبنان كان كل واحد منهما يفكر بأنه يستطيع تسخير الأخر للعمل، فرأى الزعيم في سعاده أداة لتحطيم رئيس وزراء لبنان والرائد القومي رياض الصلح الذي كان صديقاً حميماً لشكري القوتلي والذي كان يشك في أنه يتآمر لإسقاطه، فقيام اضطرابات في لبنان ستكون ذريعة له في التدخل. وبناء على ذلك فقد قدم لسعاده الرجال والأسلحة وأهداه مسدساً فضياً كرمز لصداقته، ورأى سعاده في الزعيم أداة لأيديولجيته الخاصة يمكن أن يستغني عنها حالما يحين وقت الاستيلاء على سورية، وقبل السلاح وهو من مخلفات الدرك السوري ورفض الرجال حتى لا يعطي الزعيم فرصة إملاء الأوامر عليه في لبنان.

وشن رجاله في الأسبوع الأول من تموز، عدداً من الهجمات الصغيرة على مخافر شرطة منعزلة في الجبال اللبنانية بينما أعلن هو الحرب على حكومة بيروت من (مركز الثورة الاجتماعية العامة الأولى) وكان مشروعاً خيالياً، فقد ادعت قيادة الحزب فيما بعد بأن هذا لم يكن إلا تكتيكاً تحويلياً لجلب القوات اللبنانية للقيام بهجوم كبير في مكان آخر، ولكن وقبل أن يتم تنفيذ هذا التظاهر كانت الحركة قد سحقت.

وقامت السلطات السورية في ليلة السادس من تموز بتسليم سعاده لمبعوثين لبنانيين هما مدير الأمن العام الأمير فريد شهاب ونور الدين الرفاعي. وقد اعتقد وقتئذ بأنه

كانت لديهما تعليمات بنقله إلى الحدود السورية اللبنانية وقتله (لمحاولة الهرب) ولكنهما وقد ترددا في تلويث أيديهما بدم سعادة، قررا أن يجابها الحكومة اللبنانية بمسؤولياتها، فأخذاه إلى بيروت مقبوضاً عليه، وتقرر وقتئذ استجوابه ومحاكمته والحكم عليه في الحال، وهذا ما حدث في فترة ٢٤ ساعة حيث دانته محكمة عسكرية بالخيانة العظمى في جلسة سرية وأعدم رمياً بالرصاص في فجر الثامن من تموز عام ١٩٤٩، وخرجت كل الصحف الدمشقية وعلى صفحاتها بيان الحكومة السورية بأن سعاده قد أوقف في أرض لبنانية.

وحل الحزب في السادس عشر من تموز وطاردت الشرطة أعضائه، ولا تزال حقيقة الصفقة التي على أساسها غدر الزعيم بسعاده غير معروفة، فقد قال بعضهم بأن رئيس الوزراء رياض الصلح قد (اشتراه) من حسني الزعيم وأن مصر قد حثت لكي تضغط على الديكتاتور السوري فيقوم بتسليمه.

وأنّه سعاده بعد أن كان يعبد وهو حي، فقد أدى به الغدر ووحشية الحكم الذي نفذ به إلى جعله شهيداً، كان مستعداً دوماً لأن يجابه الموت من أجل أفكاره وقد ترك هذا انطباعاً عظيماً .

وتوارد الشباب السوريون إلى الحزب وقد حركتهم ظروف موته وازدراء شديد (للزعيم) وعداوة للحكومة اللبنانية وازدحمت صفوفه بلاجئين من اضطهاد الشرطة اللبنانية وقد لقوا أيضاً تأييداً كبيراً بين ضباط الجيش.

وكانت الضربة الثانية للحزب حين اغتيال أحد أعضائه العقيد عدنان المالكي، نائب رئيس أركان الجيش السوري رمياً بالرصاص في مباراة كرة قدم في ٢٢ نيسان ١٩٥٥، وكانت الصورة العامة وراء مقتل هذا الضابط عبارة عن صراع من أجل السيطرة على الجيش وهو العامل الحاسم في السياسة السورية. ونتج عن هذه العملية

اعتقال ومطاردة أعضاء الحزب في سورية والحكم على بعضهم بالإعدام.

كما انه في صبيحة ١ كانون الثاني عام ١٩٦٢ أصيب الحزب بنكسة أخرى إثر فشل محاولة انقلابية قام بها أعضائه في لبنان فزج بمئات من أفراده وطورد من بقي منهم، إلى أن أفرج عن المعتقلين عام ١٩٦٩ وطويت هذه الصفحة من تاريخ الحزب.

ومع أنها طويت، فقد أبقت أثرها في ظهور أجنحة وتيارات متعارضة داخل حزب أنطون سعاده، ومما فجرها هزيمة حرب حزيران عام ١٩٦٧ وظهور الكفاح المسلح، وازدياد التناقض بين الواقع العربي، فكان أن فعلت فعلها في فكر الحزب وعلاقاته التنظيمية وأساليب عمله، انطلاقاً من الواقع الموضوعي وقوانينه واحتدام الصراع الطبقي وتبلوره، فكان من نتيجة تراكمها أنها انعكست على قواعد الحزب وقياداته، وأحدثت فيها هذا الانقسام العامودي.

وكان مؤتمر (ملكارت) – اسم فندق في بيروت – الذي عقد بتاريخ ٢٦–٣١ كانون الأول ١٩٦٩ قد أظهر فوارق عقائدية وخطوط سياسية متباينة. وبعد إنهاء المؤتمر وإعلان التوصيات، تم تبنيها وإعادة انتخاب الدكتور عبد الله سعاده رئيساً للحزب في أوائل ١٩٧١ ولكن نتيجة ثغرة دستورية الغي انتخابه وأجريت انتخابات جديدة، فاز على أثرها يوسف الأشقر، الذي كان عميداً للثقافة قبل الانقلاب الفاشل الذي جرى في ١٩٦٢/١/١ في لبنان.

وانقسم الحزب بعدئذٍ إلى عدة أجنحة لا تقل في أي حال عن ثلاثة، كلها تكرس زعامة (أنطون سعاده) ولكنها تتفاوت تفاوتاً صارخاً في طروحاتها، فمنها ما هو أقرب إلى الأحزاب اليسارية ومنها ما هو في حكم الأحزاب اليمينية الأوروبية المتنسورة ومنها ما هو فاشي ليس من إخلاص سوى للزعيم دون تطوير نظرياته وسياساته.

ويرى (لبيب زويا) – توفي عام ١٩٧٢ – أن الحزب السوري القومي الاجتماعي

كان أول حركة عقائدية منظمة في المشرق العربي لها خط سياسي فكري منسق، وتتمتع بقيادة ديناميكية فعالة، وكان من الوجهة العقائدية الفكرية مشبهاً بالنظريات الفاشية وذلك من جهة تنظيمية مفهومة للزعامة و(النظام الجديد) الذي رمى إلى إنشائه، وخاصة الناحية الاقتصادية منه، على غموض مذهبه هذا وتبلبله.

ومع أن عدد أجنحة الحزب السوري القومي الاجتماعي بقي محدوداً أكثر مما كان يؤمل له، وهو الذي استرعى أبناء الأقليات، فإن ذلك يعود إلى الظروف التي مرت وتمر بها المنطقة من صعود لفكرة القومية والوطنية أو التيار الديني، لكن يبقى هذا الحزب، على كل المخاضات التي مر بها، الحزب العلماني الأول في المنطقة. وإذا كانت فكرة (سورية الكبرى) رفضت بشدة من دعاة القومية العربية فإن الطرح السائد الآن وبعد العمل بفكرة القومية الواحدة لقرن مضى، فإن البعض يرى أن فكرة هذا الحزب في تقسيم الوطن العربي إلى مناطق ومن ثم توحيدها أو اتحادها تحت راية القومية العربية هو الأصوب.

على أي يبقى اسم أنطون سعاده وحزبه... الحزب السوري القومي الاجتماعي نقطة تسترعي الاهتمام لدى المراقب السياسي، ولولا النكبات التي لحقت به (١٩٤٩-١٩٥٤-١٩٦٢) لكان الوضع اليقيني للحزب قد اختلف كثيراً ... إنه حزب علق من دمه مستهوياً طبقات من الناس كان لها وزنها الفكري والاجتماعي قبل انقساماته وبقي تأثيرها قوياً ضمن أطرها التي هي به.

لقد شكل (الزعيم) أنطون سعادة بالنسبة للقوميين الاجتماعيين نبياً وهادياً ومعلماً وفادياً ومنقذاً للأمة والناس.

وهذا المفهوم لم يخلعوه هم عليه بشكل تلقائي ذاتي، بل عمل هو على ترسيخه في نفوسهم عن طريق تصوير ذاته صاحب رسالة قومية وعالمية كبرى، ولبوسه سلطة

(الزعامة) التي تضعه فوق الشبهات والانتقادات، وتجعله زعيماً مطلقاً على الحزب والأمة مدى الحياة . وقد وصفه الرجال الذين عرفوه في هذه الفترة بأنه ديكتاتور فكري متسلط ذو قدرة على جذب الآخرين، طلق اللسان، يتمتع بمعرفة سطحية ساطعة بمواضيع عديدة جداً، وكانت له آراء قوية وعرف أين يقف في كل قضية. ولم يكن لجماعته أية حرية فكرية أو إمكانية إقناعه عن طريق الحجة، فهو لم يعط أتباعه أي حق في اختيار التحول عن الحزب أو الانسحاب منه، بل لم يسمح حتى بالاستقالة، ففي تلك الحال يصدر سعاده قراراً بتاريخ مسبق بطرد الخاطئ ويختلق لذلك سبباً بشعاً ثم تشن حملة صحفية لتلطيخ اسمه. ومع أن ضحايا سعاده يستمرون في احترامه فإنه إذا ما حكم على حركته من خلال النتائج فقد كانت تمنى بفشل ذريع ويبدو حكمه السياسي أقل شأناً من فكره.

أما شخصيته فقد كان معتدل القامة، رياضي البنية، أسمر البشرة، حاد التقاسيم، ذا عينين نافذتين، في كلامه وتحركه سيطرة تامة، لا يرفع صوته، ولا يؤشر بيديه، كان في معاملته مع كل من يلاقيه لطيفاً، رفيقاً، رقيقاً، شديد الحساسية لمشاعر الآخرين.

كل ذلك جعل من القوميين السوريين، على الأقل أثناء حكمه، ينشأؤون، كما في الحركات العسكرية الفاشية، على الطاعة العمياء، والانصياع لنظام صارم، والإذعان له، وتنفيذ أوامر القيادة الفوقية بدون مناقشة أو تساؤل أو اعتراض، وبالتالي تحولوا إلى أدوات طيعة في أيدي رؤسائهم، يؤمنون بالمؤسسات الدستورية إيماناً دينياً مستسلماً، ويقفون معها سواء كانت على خطأ أو على صواب.

* * *

إن علم السياسة الخالص لم يعد ممكناً في عصرنا، حتى على افتراض وجوده في الماضي، وذلك لأنه ليس هناك من إمكانية لفصل التحليل النفسي عن الفعل والعمل، لذا لابد من تتبع الأفراد الذين يصنعون التاريخ، وليس المختصين الذين يدرسونه فيما بعد .

وعلم السياسة ليس على ثقة من وسائله لدرجة يبلغ معها مرحلة إعطاء الأحكام المطلقة، ومن ثم، فإنه كلما أوغل العالم النفسي في الالتزام بالحقيقة التي يحللها، كلما حُمِّلَ على تحريفها تبعاً لمفاضلاته.. إذ ما من أحد يستطيع الادعاء بأنه موضوعي بشكل مطلق لدى تحدثه عن شخصية كأنطون سعاده، لذا فإن النتائج التي سينتهي إليها هذا الفصل لا تحمل ولا يمكن أن تحمل طابع التأكيد... إنها ليست أكثر من فرضيات من الوجهة النفسية.

لا مجال للشك في أن بعض شخصيات الأفراد تقوم على طموح لا وسيلة لكبحه، وعلى تعطش لتسلم السلطة تحت لون من الطغيان والكبرياء والتعجرف، بالإضافة لبعض المهارة السياسية وبعض الظروف المواتية والأحوال الملائمة. إلا أن نسبة هؤلاء الأفراد، إذا ما نظر إلى ظهورهم من خلال تشابه الظروف وتماثل الأحوال، تظل تقريباً ثابتة في مختلف المجتمعات. وإلا، لماذا لا يستلم أي فرد طاغية الحكم خلال عصور بكاملها، بينما يتعدد الطغاة في عصور أخرى؟ والجواب على ذلك أن هناك موجات من أوبئة الحكم الديكتاتوري خلال فترة معينة من التاريخ، ويمكن الاعتماد على الجواب متقدم الذكر بشأن النظريات القائمة على مبدأ (التحليل النفسي) والتي تفسر منشأ الديكتاتورية عن طريق ما يمكن تسميته (عقد الحرمان) .

وإذا كان البعض قصد من عُقد الحرمان قصر القامة أو تشوهها أو طفولة مشوهة، ومراهقة صعبة، الأمر الذي من شأنه أن يمهد السبيل لخضوع شخصية المبحوث إلى

مجموعة من العُقد، فإن الوضع يختلف كلياً بشأن شخصية (الزعيم) أنطون سعاده .

إذا عدنا إلى ما قدمنا به أنطون سعاده نرى انه عاش أكثر من نصف عمره خارج وطنه في بلاد قصية تجعل حنين العودة إلى الوطن قائمة بشدة لدى المغترب، وفي عقود كانت مزدهرة بعصر القوميات مما جعل من أنطون سعاده يتشبث بوطنه الذي كان سورية الكبرى وجعل يتغنى به ويكبر من شأنه مما زاد الخيلاء لديه بأمة سورية صافية، وكان قد ذُكِرَ مثلها في بلدان أخرى.

وحين يتطور الأمر من المرحلة الوطنية إلى المرحلة القومية عليك أن تكون بمنتهى الشدة والصرامة، ومثل هذا الأمر يجعل من صاحبه ديكتاتوراً شاء أم أبى.. ألا يفعل الأب ذلك مع أولاده والأم مع أولادها، أو ما يسمى بالبنية البطريركية.

وعلينا التمييز بين نموذجين من العقلية الديكتاتورية .. فهناك الديكتاتورية المتولدة من عوامل اجتماعية كحالة أنطون سعاده، وهناك النموذج الثاني، أي الديكتاتورية المتولدة عن عوامل تقنية. وبتعبير آخر، يمكننا القول أن النموذج الأول يتولد عن أزمات يتعرض لها البنيان الاجتماعي العقائدي، أي أنه نموذج يعكس الوضع الاجتماعي لأن الجذور والأصول العميقة للتركيب الاجتماعي هي التي أنجبته. وبجملة واحدة: إنه نموذج يتولد عن تفاعل قوى وطاقات داخلية وذاتية، بينما يكون النموذج الثاني (دخيلاً) وذلك بحسب المعنى المحدد لهذه الكلمة في (العلوم الحيوية). فهو نموذج متولد عن عوامل خارجية عن المجتمع، أو أنها من داخل المجتمع ولكنها معزولة عن تفاعله، حيث يأخذ نموها وتطورها صفات خاصة، مستقلة وخارجية. وهكذا فإنه عوضاً عن أن يلبي هذا النموذج الثاني حاجات المجتمع الذي سيخضع لأحكامه، وعوضاً عن أن يلبي حاجات وآمال مجموعة كبيرة من أفراد المجتمع، فإنه يُعبر عن أغراض معينة لمنظمات وأجهزة خاصة، وعن آمال ورغبات

العناصر المؤلفة لهـذه المنظمـات، عنـاصر قليلـة العدد ولا تتمتـع أبـداً بحـق التمثيـل الدستوري. وتُعتبر ديكتاتورية الجند واحدة من الديكتاتورية التقنية.

على أن البعض قد يتسـاءل إذا مـا كـان أنطـون سـعاده مـن النمـاذج الديكتاتوريـة المتولدة عن عوامل اجتماعية فلماذا قام هو في أواخر حياته بمحاولة انقلابيـة أو ثوريـة ومن ثم أتباعه بمحاولة اغتيال وانقلاب ؟

ألا يتعارض هذا الأمر مع ما ذهبنا إليه !

ليس في حالة أنطون سعاده وحزبه ما يبعدهما عما توصلنا إليه في تحليلنـا النفسـي لشخصيته. فمن المعروف أن الديكتاتوريات العرضية نادرة الحدوث، ولا تدوم طويـلاً، ومصيرها الفشل دوماً، وعلى العكس من ذلك، فإن أكثر الديكتاتوريات تتصل أسـباب ظهورها بعوامل بنيانية مرتبطة بالـتركيب الاجتمـاعي، ولا تلعـب الأسـباب العرضيـة (كالحرب والأزمات الاقتصادية) أكثر من الدور الدافع أو المولد للشرارة.

نخلص مما قلناه أن (ديكتاتورية) أنطـون سـعاده علـى مـن أتـى بـها ممـن أرخ لحياته وحزبه، سواء أكانت من أنصاره أو ممن وقف ضده، هي نتيجة لعقدة الحرمان التي عاشها في الاغتراب بعيداً عن أهله ووطنه، في عصر سـادت بـه القوميات، فقـد تجسمت فكرة القومية السورية وسورية الكبرى لدى هذا (الزعيم) بشكل مرضي حيـث كان عمادها الديكتاتوريـة في القـرارات والتنفيـذ والانضبـاط، وهـذه (العقليـة المرضيـة) أوصلت الكثير من الأشخاص إلى سدة الحكم حيث أنشأ هؤلاء أحزاب تخدم عقلياتهم سقطت حين طارت رؤوسها، فيما نرى الحزب السوري القومي الاجتماعي قـد حـافظ على هيكله وحجمه نوعاً ما وبدا أقل بريقـاً ممـا كـان عليـه في عـهد زعيمـه، وحتـى الديكتاتورية في قراراته أصبحت أكثر ليونة ومتحللة من نطاقها السابق.

المراجع:

١. الصراع على سورية باتريك سيل ترجمة سمير عبده ومحمود فلاحه دار الأنوار بيروت ١٩٦٨

٢. السياسة السورية والعسكريون جوردون .هـ.توري ترجمة محمود فلاحه دار الجماهير – دمشق ١٩٦٩

٣. الجمر والرماد د.هشام شرابي دار الطليعة–بيروت ١٩٧٨

٤. تحليل وتقييم الحزب القومي الاجتماعي لبيب زويا ترجمة جوزيف شويري دار ابن خلدون–بيروت ١٩٧٣

٥. في الديكتاتورية موريس دوفرجيه ترجمة د.هشام متولي منشورات عويدات –بيروت ١٩٦٥

٦. صحيفة البلاد – دمشق ٣٠ أيار ١٩٤٦

7. Dawn, c. Ernest: the Riss of Arabism in Syria Middle East journal , Vol 16 , No 2 , Autumn 1961

اللواء محمد نجيب

حين يقرأ واحدنا السيرة الذاتية للواء محمد نجيب أول رئيس جمهورية لمصر سيقف طويلا أمامها،فقد تم تعيينه بقرار من مجلس قيادة الثورة في ١٨ يونيو –حزيران ١٩٥٣ واستمر في منصبه حتى حدثت أزمة مارس–آذار عام ١٩٥٤ والتي انتهت في ١٤ نوفمبر–تشرين الثاني عندما دخل إلى مكتبه فوجد مجموعة من الضباط تحاصره وتأخذه في سيارة صغيرة تقوده إلى فيللا في المرج قضى فيها ٢٠ عاما في حجرة صغيرة متواضعة التجهيز، بها سرير قديم من الخشب، ومنضدة صغيرة وقطيع من القطط والكلاب، واستمر في هذا المعتقل حتى حكم مصر الرئيس حسني مبارك فأطلق سراحه بعدما تمكن من القضاء على مراكز القوى.

حين التمهيد لثورة يوليو – تموز كان جمال عبد الناصر يبحث عن عسكري يحمل رتبة عسكرية كبيرة لتعيينه قائدا للجيش حين استلام السلطة، فرتبته العسكرية آنذاك – جمال عبد الناصر – كانت رتبة صاغ (رائد الآن) وأيضا لم يتجاوز عمره الثلاثين عاما، ولا يعقل أن يصبح قائدا للجيش والشعب معا[*].

وضع عبد الناصر شروطا (للموديل) الذي سيلبسه صبغة (قائد الثورة) وليس (صانع

[*] – في الانقلابات اللاحقة التي حدثت في افريقية – على سبيل المثال – استلم السلطة بانقلاب عسكري (العريف) صموئيل دو، وكذلك الأمر في غانا استلم السلطة ملازم أول وغيرهما ممن كانوا في مراتب صغيرة في الجيش.

الثورة). فقد آثر (صانع الثورة) – جمال عبد الناصر – أن يبقى في المؤخرة لاعتبارات سبق وذكرنا بعضها قبل قليل، واضعا مواصفات لشخصية قائد الثورة أن تكون من ذوي الرتب العسكرية الكبيرة، وأن يكون مشهودا إليها بالنزاهة وبالوطنية وبالشجاعة في مواجهة الخطر، وأن تكون لها في صفوف الجيش شعبية تمكنها من قيادة الجيش نحو الهدف المحدد، وأن تكون مشاركة للضباط الأحرار في آلامهم وفي جراح نفوسهم.

وعن طريق عبد الحكيم عامر أمكن له الاتصال بالعميد آنذاك – محمد نجيب– الذي كان يعمل عنده في جبهة القتال. وكان لمحمد نجيب سمعته الكبيرة ومواقفه المجيدة في الجيش، حيث جرح في ميدان القتال ومنح وسام (نجمة فؤاد العسكرية) –هو أرفع وسام عسكري – وتصدى للقيادة الفاشلة للجبهة ممثلة في قائدها اللواء (أحمد علي المواوى). وكعقاب له على هذا التصدي، أبعد عن الجبهة إلى القاهرة. فلما حل اللواء (أحمد فؤاد صادق) محل اللواء(المواوى) بعد أن تأكد فشله في إدارة المعركة، كان أول شيء فعله القائد الجديد هو المطالبة بعودة محمد نجيب، فورا إلى ميدان القتال.

ولما تم ذلك، ازدادت العلاقات بينه وبين أركان حربه عبد الحكيم عامر توطدا، ولأن أمر اختيار (الرجل) الذي سوف يقود (ثورة الجيش) عند تفجرها، كان هما قائما بذاته بالنسبة لعبد الحكيم عامر، مثلما كان هما قائما بذاته بالنسبة لعبد الناصر، فقد عمل عبد الحكيم عامر من ناحيته على الاقتراب أكثر فأكثر من محمد نجيب الذي كانت سمعته الشخصية وسمعته العسكرية قد حققتا له في صفوف الضباط والجنود شعبية هائلة.

لقد زعم البعض أن محمد نجيب لم يكن يدري شيئاً عن الثورة إلا قبل ساعتين اثنتين من قيامها، فيما زعم آخرون أن الثورة كانت ثورة (محمد نجيب) وسرقها منه عبد الناصر.

إلا أن الوثائق التاريخية تثبت أن الثورة ثورة عبد الناصر ..هو مدبرها ومهندسها والمخطط الأول والأكبر لكل خطوة من خطاها. ولكن دور محمد نجيب في هذه الثورة سيظل دوراً خطيراً وفعالاً ومؤثراً يشهد له بالشجاعة وبالوطنية وبالجرأة.

ولكن محمد نجيب لم يقبل هذه الحقيقة حين قال (أنا الذي حددت موعد الثورة ٢٣ يوليو ولم أوافق على تأجيله إلى خمسة أغسطس كما اقترح عبد الناصر بعد أن تمت مقابلة سرية بيني وبين الدكتور محمد هاشم – وزير الداخلية – ورفضت منصب وزير الحربية الذي عرضه علي، وفهمت في هذه المقابلة أن الملك أصبح يعلم بنشاط الضباط المعارضين له في الجيش وأنه على وشك ضربة قاضية لهم. وهذا يفسر ما قاله الملك وأنا أودعه على ظهر الباخرة المحروسة وهو يغادر مصر: (أنتم اتغذيّتم بيّه قبل أن أتعشى بيكم)! ولست أبالغ أن نجاح الثورة ارتبط باسم محمد نجيب عند ضباط الجيش.

ووقوف الجيش كله يؤيدني: إني قائد ثورة يوليو، وإذا كانوا هم أصحاب ثورة يوليو كما يقولون فلماذا استعانوا بي ولم يقوموا بها بأنفسهم).

والنقطة الرئيسة في موضوع اللواء محمد نجيب .. هل هو صانع الثورة أو قائدها وما جره ذلك من ويل عليه دفع ثمنه غاليا. لابأس، لو نتابع ما ذكره محمد نجيب من خلال كتابه (كلمتي للتاريخ) الصادر في بيروت عام ١٩٧٥، فما ذكره هذا الرجل لم يكن صحيحا لبقية ما كتب عن ثورة يوليو من المقربين إليها.

يتابع محمد نجيب تذكره للأيام التي سبقت ثورة يوليو واتصاله بضباطها الأحرار قائلا:

(قبل أن ألتقي بالضباط الأحرار لم اترك يوما دون أن أتصل بمن أثق فيهم من الضباط . كنت أحثهم على القتال والثورة، كنت لا أتردد في التصريح بأن عدونا الرئيسي ليس هو اليهود بقدر ما هم هؤلاء الرجال الذين يرتكبون خلف ظهورنا الآثام والموبقات ويطعنون شرفنا بما يرتكبون من حماقات وانحرافات. صحيح أن رؤيتنا في هذه المرحلة لم تكن قد وصلت إلى حد عزل الملك وإقامة جمهورية، ولكن اهتمامنا تركز على الأخطاء المباشرة التي نعاني منها مثل ضعف القيادات الكبيرة، وفساد رجال الحاشية، والعمولات الهائلة التي أحاطت صفقات الأسلحة).

(لقد عرف الجميع في حرب فلسطين اسمي لأني كنت أتولى قيادة القوة الضاربة أولا، ولأن المشادة بيني وبين (المواوي) كانت أحد الأسباب الرئيسة التي أدت إلى استبداله في القيادة ثانيا، ورغم أني كنت محسوبا من ناحية السن والرتبة على كبار الضباط إلا أني كنت منجذبا إلى صغار الضباط، أجد فيهم الوهج الذي كاد يخبو في صدور أبناء جيلنا) .

ويحكي عن أول اتصال بعبد الناصر:

(كانت البداية بلقاء مع الصاغ عبد الحكيم عامر عندما عين أركان حرب في اللواء الذي أقوم برئاسته، فوجدت فيه الرجل الذكي المخلص لمصر، وعندما تحدثنا سمعته يردد آراء وطنية ..

ثم عرفني عبد الحكيم عامر على البكباشي جمال عبد الناصر الذي قال حين تقابلنا: عثرنا على كنز كبير بالتعرف عليك، ثم التقيت بباقي مجموعة الضباط الأحرار، ولم يكن حديثنا يخرج عن إطار ضرورة تغيير الأوضاع في مصر، وكان ذلك

قبل حرب فلسطين، ولكن حين وقع حريق القاهرة عام ١٩٥١ بدأنا نتشاور بطريقة أكثر جدية لتغيير الأوضاع جذريا وبدأنا فعلا المواجهة الفعلية أثناء انتخابات نادي الضباط).

البعض يقول أن محمد نجيب كان ممن يؤمن بالديمقراطية وإعادة الأحزاب. وهنا حدث خلاف خطير بين محمد نجيب وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة وبين جمال عبد الناصر وبقية أعضاء المجلس. وحدثت أزمة في آذار عام ١٩٥٤ والتي انتهت بانتصار الزعيم الراحل جمال عبد الناصر وجماعته، وفي ١٤ تشرين الثاني عام ١٩٥٤ بعزل محمد نجيب واعتقاله أو وضعه في الإقامة الجبرية لمدة عشرين عاما.

هنا يجب توضيح بعض الأمور في الفترة التي قامت بها ثورة يوليو.

علينا التذكير أنه في ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٣ أسس حزب سياسي واحد باسم (هيئة التحرير)، وأوكلت الأمانة العامة لجمال عبد الناصر. وفي العاشر من شباط، أعلن محمد نجيب عن فترة انتقالية من ثلاث سنوات، يقوم خلالها بمهام الحكم مجلس الثورة بالاشتراك مع مجلس الوزراء، ويشكلان معا المجلس التنفيذي، أي أعلى سلطة في الدولة .

وفي ١٦ حزيران ١٩٥٣ دخل حكومة نجيب أربعة أعضاء من مجلس الثورة فأصبح جمال عبد الناصر نائبا لرئيس مجلس الوزراء ووزيرا للداخلية، وعبد اللطيف البغدادي وزيرا للحربية، وصلاح سالم وزيرا للإرشاد الوطني ووزير الدولة لشؤون السودان، وأخيرا عبد الحكيم عامر، الذي عين لواء، قائدا للقوات المسلحة. وبعد يومين، ألغيت الملكية وأعلنت (جمهورية مصر).

وهكذا سقط القناع الذي كان يحجب حتى الآن النوايا الحقيقية لحركة الجيش الملتفة حول جمال عبد الناصر. ولم يكن ممكنا أن تؤدي أزمة المجتمع المصري، على

ضوء حريق القاهرة، إلى عودة الزعماء التقليديين، والحديث عن الدستور والانتخابات يعني عودة الوفد.

بيد أن القوى التي كانت تنشط للقضاء على الديكتاتورية العسكرية كانت متعددة، وبعضها يعادي الوفد.ويأتي في طليعة هذه القوى اللواء محمد نجيب نفسه، وقد ظلمه مجلس الثورة، ثم الضباط اليساريون، خالد محي الدين بالدرجة الاولى، والعقيدان يوسف صديق وأحمد شوقي، تدعمهم سرية المصفحات وقسم من حامية القاهرة، والصحافة الوفدية واليسار، وكان يملك آنذاك صحافة قوية، منها (الملايين) التي حيت النظام الجديد كانتصار للبرجوازية الوطنية، و(الكاتب) لسان حال أنصار السلم و(اكيتاليتيه) وهي مجلة أسبوعية تصدر باللغة الفرنسية وذات انتشار واسع، ومجلات أخرى أقل انتشارا ولكن لا تخلو من التأثير بالأوساط الشعبية.

ذلك ما يتعلق بالجناح اليساري للحركة الوطنية، أما اليمين، فإن الإخوان المسلمين قد عيل صبرهم وأخذوا يطالبون بحصتهم في السلطة، وكان عدد من القادة العسكريين: عبد الحكيم عامر، كمال الدين حسين، أنور السادات، حسين الشافعي، وخاصة رشاد مهنا، وعبد المنعم عبد الرؤوف، قد انتسبوا إلى جماعة الإخوان، فأتى القرار بحل الأحزاب ولم يمسهم. وهكذا بقي الإخوان المسلمون القوة السياسية المنظمة الوحيدة التي يسمح لها العهد بالعمل، فأعدوا العدة ليلعبوا دورهم، وبينما أبدى المرشد الأعلى الجديد، حسن الحديبي، استعداده للتعاون مع مجلس الثورة، طلب الجناح المتشدد: صالح عشماوي، محمد الغزالي، حسن دح، عبد الحكيم عابدين، أحمد عبد العزيز جلال، بحق مراقبة التشريعات الصادرة عن الحكومة. واستغل الإخوان المسلمون الاتفاق الإنكليزي - المصري حول السودان (شباط ١٩٥٣) والذي سبقته وساطة اللواء محمد نجيب بين مختلف الأحزاب السودانية لتوحيدها، ثم بدء

المحادثات بين مصر وبريطانيا بشأن الجلاء (كانون الثاني ١٩٥٤) استغلوا هذه الظروف لإبراز قوتهم.

وفي ١١ كانون الثاني ١٩٥٤ خطب حسن دح، زعيم طلاب الإخوان المسلمين في الجماهير بمناسبة تظاهرة كبيرة في بهو جامعة القاهرة، في الجيزة، وكان إلى جانبه قائد حركة فدائيان إسلام الإيرانية، السيد نواب صفدي، وقام الإخوان باستعمال أسلحة نارية وسكاكين وعصي، وبشتم الجيش والشيوعيين. وجرح أثناء التظاهر عدد من الشرطيين والطلاب. وفي ١٤ كانون الثاني أعلن مجلس الوزراء حل الجمعية، فانحاز زعماء الحركة إلى محمد نجيب الذي غدا بذلك قطب المعارضة كافة.

حصل الاصطدام الحاسم في شباط ١٩٥٤ إذ قامت (الجبهة المتحدة) التي كانت تضم الوفديين والشيوعيين وحزب مصطفى كمال صدقي الديمقراطي، مع عناصر من الجيش، قامت بنشاط متواصل لإعادة الحريات الديمقراطية والحياة الدستورية، فيما كان هدف الإخوان هو نهاية النظام العسكري.

وفي ٢٣ أذار، وبعد عدة اجتماعات عاصفة، استقال اللواء نجيب، ولكن تدخل المصفحات التي كان يقودها خالد محي الدين، أرغمه على العودة إلى الحكم.

راح جمال عبد الناصر يراوغ ويهادن حتى تمكن من تجميد القوى المعادية له في الجيش، عندئذ نظم سلسلة من التظاهرات والاضرابات تحت إشراف هيئة التحرير (٢٥، ٢٦، ٢٧ آذار) في القاهرة والإسكندرية. وفي ٢٨ منه، أعلن مجلس الثورة أن انتخابات الجمعية التأسيسية التي كانت حددت في حزيران ١٩٥٤ قد ألغيت، ثم قام بتعديل الحكومة فأبعد اللواء نجيب عنها وعن مجلس الثورة. وفي ١٥ نيسان أعلن مجلس الثورة إسقاط الحقوق السياسية عن القادة السياسيين الوفديين والأحرار الدستوريين والسعديين والذين شغلوا مناصب وزارية بين ١٩٤٢ و١٩٥٢، وفي نيسان

١٩٥٤ تسلم جمال عبد الناصر رئاسة مجلس الوزراء، بالإضافة إلى رئاسة مجلس قيادة الثورة.

وبين كانون الأول عام ١٩٥٣ وكانون الثاني ١٩٥٤ كانت محكمة الثورة، المنعقدة باستمرار، قد أصدرت بحق عدد كبير من زعماء العهد الماضي أحكام قاسية بالسجن والأشغال الشاقة. وبعد نيسان ١٩٥٤ ألحقت الصحافة بالركب فعطلت الحكومة صحيفة (المصري)، وتخلصت بذلك من أقوى جريدة مصرية، الجريدة التي كانت تُعبر عن مختلف التيارات الديمقراطية ((كما ذكر صاحبها (أبو الفتح) في كتاب له)).

وفي ٢٦ تشرين الأول أطلق أحد أفراد تنظيم الإخوان ست رصاصات من مسدسه على جمال عبد الناصر أثناء اجتماع شعبي في الإسكندرية ، فأخطأه، وقام الجهاز البوليسي الذي يديره الزعيم زكريا محي الدين باعتقال حوالي ٧٠٠٠ عضو من الإخوان المسلمين، وحكمت المحاكم العسكرية على ٨٦٧ منهم. ومثل زعماؤهم، وقد حطمهم التعذيب، أمام محكمة الشعب التي يرأسها جمال سالم، مثل عبد القادر عودة، يوسف طلعت، خميس حميدة، وحسن الحديبي خاصة. وأعدم ستة من الذين حكم عليهم بالإعدام في ٨ كانون الأول ١٩٥٤ ولم ينج إلا (المرشد الأعلى). وكان اللواء نجيب قد أقيل من منصب رئيس الجمهورية، وأوقف وفرضت عليه الإقامة الجبرية في ١٤ تشرين الثاني١٩٥٤.

هذه الفترة التي لوحقت خلالها كل حركة ذات صبغة ديمقراطية يقول محمد نجيب عنها :(لم تكن أزمة آذار ١٩٥٤ صراع على السلطة بل كانت صراعاً مبدئياً اعتنق فيه الديمقراطية وحق الشعب في حكم نفسه وضرورة عودة الجيش إلى ثكناته وقيام حكم نيابي في ظل الدستور، كان جمال عبد الناصر ومجلس الثورة يعتنقون مبدأ

استيلاء الجيش على السلطة تحت شعار أن الثورة يجب أن تستمر، وكانت مواقفي نابعة من هذا المبدأ .

حين أصدرت محكمة عسكرية برئاسة جمال عبد الناصر وبعض أعضاء مجلس الثورة حكماً بالإعدام على البكباشي حسني الدمنهوري بعد ساعات من اعتقاله، أوقفت تنفيذ هذا الحكم وبدأت الخلافات... صمم أعضاء مجلس الثورة أن يحاكموا بأنفسهم عدداً من ضباط المدفعية بتهمة محاولة الاستيلاء على الحكم، وكان ضباط المدفعية هؤلاء قد طالبوا بحكم ديمقراطي ودستور وتغيير بعض أعضاء مجلس الثورة، ورفضت إعدام أحد من الضباط وأوقفت حمامات الدم.

وكانت الخلافات مرة أخرى بسبب الانحرافات التي حدثت نتيجة تسرب الضباط إلى الوزارات، والمصالح الحكومية، وأصبح في كل وزارة أو مصلحة ضابط أطلقوا عليه اسم (مندوب القيادة) ثم كانت قطارات الرحمة ومعونة الشتاء بإشراف بعض الضباط والفنانين والفنانات وما أحاط ذلك من انحرافات وسرقات وتكونت لجان جرد للقصور الملكية ووصلتني أخبار عن عمليات نهب لها وأصدرت قرارا بالتحقيق الذي انتهى دون أي نتيجة لأن هؤلاء الضباط كانوا يعتمدون على صلاتهم الشخصية بجمال عبد الناصر وبعض ضباط مجلس الثورة الذين كانوا يتغاضون عن انحرافاتهم .

وفي عام ١٩٥٤ قال جمال عبد الناصر أنه يفضل أن تكون الثورة (حمراء) على أن تكون (عرجاء) وأصدر مجلس الثورة بالأغلبية (رغم معارضتي) قرارا بتشكيل محكمة الثورة لمحاكمة السياسيين المعارضين، وكان الهدف إعدام بعض هؤلاء السياسيين وعلى رأسهم ابراهيم عبد الهادي رئيس الوزراء الأسبق، والوزراء السابقين فؤاد سراج الدين وابراهيم فرج وعبد الفتاح حسن، وسليمان غانم، وحامد جودة وغيرهم، وبعد محاكمة صورية أصدرت محكمة الثورة حكما بإعدام ابراهيم عبد الهادي الذي كان

أحد زعماء ثورة سنة ١٩١٩ ، ورفضت الموافقة على إعدامه أو أي واحد من هؤلاء السياسيين، ومرة أخرى حافظت على (الثورة البيضاء).

وبعد اعتزالي أعدمت محكمة الثورة عدداً من زعماء الإخوان المسلمين ولم يشفع لهم أنهم كانوا على علم بقيادة الثورة، بل شاركوا فيها !.

وفي شباط سنة ١٩٥٤ أصدر مجلس الثورة بالأغلبية قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين ولم أوافق على هذا القرار، وقدمت استقالتي لاقتناعي بأنني وأعضاء مجلس الثورة لم نجلس في مواقعنا بانتخابات شرعية حتى أرضخ لقرارات الأغلبية، وكذلك إيماناً مني بتأييد الشعب للديمقراطية التي كنت أريدها ورفضه للدكتاتورية ومعارضة الجيش لتصرفات جمال عبد الناصر ومجلس الثورة والقلة المستفيدة والمقربة منهم .

وافق مجلس الثورة على استقالتي وأصدر بياناً طفح بالأكاذيب يستهدف الإساءة إلى شخصي ومحاولة تقليل دوري في نجاح الثورة.

وجاء بهذا البيان انهم لم يخطروني بالاختيار لقيادة الثورة إلا قبل قيامها بشهرين وهو أمر يجافي الحقيقة لأنهم وضعوا أنفسهم تحت قيادتي منذ ٢٦ كانون الثاني سنة ١٩٥٢ وجميع الخطوات التي تمت بعد ذلك كانت بموافقتي وبأمر مني!.)

ويختتم محمد نجيب تعليقه على أزمة آذار وأحداثها المتتالية المعروفة بهذه العبارة:

((كنت أستطيع فرض إرادتي وعودة الديمقراطية بالقوة، ولكن كان هذا يتنافى مع المبادئ التي كنت أنادي بها، كما أنني كنت أدرك أبعاد المؤامرة، وأن الإنكليز والأمريكان يتربصون بمصر، وإذا حدث قتال تحرك ٨٠ ألف عسكري إنجليزي تم وضعهم على أهبة الاستعداد في قاعدة قناة السويس.

رفضت استعمال القوة والحرب الأهلية واحتمالات الخراب والتدخل الأجنبي،

وقررت الانسحاب وتسليم الحكم إلى جمال عبد الناصر.. وهكذا انتهت ثورة ٢٣ يوليو وبدأت ثورة عبد الناصر.

وأشهد الله أن ما تعرضت له خلال فترة اعتقالي لم يترك في نفسي أي حقد تجاه أي إنسان فالحقد ليس من طبعي، وكل إنسان حر في آرائه السياسية، والخلاف في الاجتهادات مشروع.

ولم يكن اعتقالي سببا في إنكار إيجابيات الثورة.. أن إيجابياتها كثيرة، منها قانون الإصلاح الزراعي الذي صدر في أول قيام الثورة، والذي أعاد ملكية الأرض للفلاحين، وقضى على تسلط الإقطاعيين. وكذلك إقامة السد العالي الذي تقرر تنفيذه أيامي، وتأميم القناة وهي فكرة كانت تراود كل الوطنيين في مصر، وأذكر أننا كنا ننظم محاضرات في نادي الضباط في أول الثورة ندرس فيها كيف نستولي على القناة سليمة ونمنع تخريبها.

وقد أبرقت للرئيس جمال عبد الناصر أكثر من مرة مهنئا عندما كان يتخذ قرارات لمصلحة الوطن: أبرقت له عام ١٩٥٦ عندما أمم قناة السويس، وأبرقت له عندما قامت الوحدة مع سورية، وأبرقت له عندما وقع عدوان ١٩٦٧ وقلت له: أضع نفسي تحت تصرفكم، ومستعد لأن أقوم بأي عمل للدفاع عن البلد (كفرد) من أفراد الشعب.

وأخيرا أقول أنني في كل المناسبات الوطنية كنت أرسل له مؤيدا و(متناسيا) كل الأذى الذي كان علي.))

ذلك ما قاله اللواء محمد نجيب عن دوره في ثورة يوليو ١٩٥٢.

ولئن كان الصدام قد وقع، فيما بعد بين أعضاء مجلس القيادة من ناحية وبين (محمد نجيب) من ناحية أخرى فإن ذلك كان أمرا حتميا.. حتمته اعتبارات موضوعية كثيرة. من هذه – الاعتبارات ولعله أهمها – أن فارق السن بين (محمد

نجيب) وبين أكبر أعضاء مجلس القيادة سناً، لم يكن يقـل عـن عشرين سـنة. وهـذا يعني أن مجلس القيادة بأكمله، كان من جيل بينمـا كـان محمـد نجيـب لوحـده مـن جيل آخر.. جيل مختلف تماماً في أسلوب التفكير، وفي أسلوب التنفيـذ، وفي أسـلوب اتخاذ المواقف.

ومن هذه الاعتبارات أيضاً أن محمـد نجيـب كـان يدلـف بعمـره إلى ذروة الكهولـة بهدوئها وتريثها، بينما كان زملاؤه أعضاء مجلـس القيـادة يدلفـون بأعمـارهم إلى ذروة الشباب بحماسته، وثورته واندفاعه.. كان هو في الرابعة والخمسين بينما كـان أكـبرهم سناً في الرابعة والثلاثين، ومنهم من كان أصغر. كـانوا هـم (ثوريـين) مـن قمـة الـرأس حتى أخمص القدم، بينما كان هو(إصلاحياً) أكثر منه (ثورياً). فعلى سبيل المثال كـان (محمد نجيب) يفضل بالنسبة للإصلاح الزراعي، فرض ضرائب تصاعدية علـى مـلاك الأراضي، وكان هذا نفس رأي علي ماهر باشا الذي رأس أول حكومات الثورة، بينمـا كانت مجموعة الثوار الشبان تفضل (تحديد الملكيـة الزراعيـة) إذ كـانت هـذه – مـن وجهة نظرهم – (ثورة) تجتث (دولة الإقطاع) من جذورها. أما (الضرائب التصاعدية) فمهما يكن من أمر حجمها، فإنها لن تخرج عن كونها مجرد إجراء إصلاحي تستطيع أية حكومة –حتى لو كانت رجعية – أن تفعله.

وإنه لصحيح تاريخياً – أن (قانون الإصلاح الزراعـي) – بصورتـه الـتي وضعـها مجلس قيادة الثورة أعلنته (حكومة محمد نجيب) الـتي تولـت الحكـم بعـد سـقوط (حكومة علي ماهر) التي كان عدم موافقة رئيسها على هذا القـانون، واحـداً مـن أهـم أسباب سقوطها، إلا أن هذا لا ينفي أن (محمد نجيب) كـان لـه رأي شـخصي (غـير معلن) مختلف تماماً عن مضمون القانون الذي أعلنته حكومته.

ولعل الصدام بين (قائد الثورة) وبين (صانعي الثورة) قد تفجر بأسرع مما كان أحـد

يتوقع، لكن ذلك لن يغير في الحقيقة شيئاً.. والحقيقة هنا - وفي ضوء تلك الاعتبارات الموضوعية التي مرت معنا - أن ذلك الصدام كان (أمراً محتوماً).

وقد تكون طبيعة (محمد نجيب) كإنسان - مسؤولة بالدرجة الأولى عن تلك السرعة التي تفجر بها الصدام بينه وبين زملائه أعضاء مجلس الثورة. فمن أبرز نقاط الضغط (على حد قول حلمي سلام) في شخصية محمد نجيب، عدم قدرته على احتمال (مواجعه العامة) فكان كلما وقع بينه وبين زملائه الشبان خلاف على أمر ما، أفضى بتفاصيل هذا الخلاف إلى من يؤتمن عليه، ومن لا يؤتمن.. لمن يقدر على كتم السر، ومن لا يقدر! ! وكانت هذه (الأسرار) تعود فترتد - ومزاد عليها - إلى أعضاء مجلس الثورة الذين كان أغلبهم لا يتصور أن الرجل يفعل ذلك نتيجة عدم قدرته على احتمال (المواجع) وإنما كانوا يتصورون أنه يتعمد إفشاء هذه التفاصيل بقصد إثارة الناس ضدهم، ومن هنا تزايدت التراكمات واتسعت الهوة...وأصبح كل شيء معلقاً على شفا الهاوية.

وإذا كان الخلاف بين محمد نجيب وأعضاء مجلس الثورة قد تفجر وشهر في شباط ١٩٥٤ بسبب قضية الديمقراطية أو اللاديمقراطية، فإن هذا الخلاف ربما كان هو (القشة التي قصمت ظهر البعير). على أن الحقيقة الثابتة والتي يعلمها - عن يقين - كل من اقترب من (كواليس) مجلس الثورة في تلك الفترة من التاريخ المصري، هي أن الخلاف بين (محمد نجيب) من ناحية ومجلس الثورة من ناحية أخرى كان قد أطل برأسه بين الطرفين في وقت مبكر جداً على ذلك التاريخ، وكان هذا الخلاف - في صورته الهامة والحادة أيضاً - نتاجاً طبيعياً لذلك الاختلاف الشديد بين الفكرين،والأسلوبين، والجيلين، كما أنه - في صورة أخرى من صوره - كان صراعاً حقيقياً على السلطة بين الذين يؤمنون بأن الثورة ثورتهم، وأنهم إنما جاءوا بالرجل

ليلعب على مسرحها (دوراً محدداً ومحدوداً) وبين نفس الرجل الذي بدأ يرفض، بعد تلك الشعبية الجارفة التي اكتسبها لنفسه وللثورة ذاتها، بطيبته وبساطته وتلقائيته، أن يكون له على مسرح الثورة دور محدد أو مقزم.

وقد عاني محمد نجيب، خلال السنوات العشرين التي قضاها وراء أسوار قصر المرج من الأهوال ما لم يقاسيه واحد ممن تآمروا على ثورة يوليو تآمراً حقيقياً نابعاً من حقدهم على الثورة، وعلى أهدافها، وطموحاتها. فلقد ألقي به وراء أسوار قصر المرج وهو في عنفوان رجولته، ولم يسمح له بالخروج من وراء هذه الأسوار، إلا بعد أن كان بلغ ذروة شيخوخته، وبعد أن تأكد لدى الجميع انه لم يعد قادراً على تهديد أحد، ولا على إتعاب أحد ولا حتى مجرد الهمس في أذن أحد.

ولم يكن السجن وراء الأسوار الموحشة يمثل كل تلك الأهوال البشعة التي تعرض لها (البطل العجوز) أبان محنته هذه، بل كان هناك ما هو أشد هولاً من السجن في ذاته.. كان هناك التعذيب المعنوي والنفسي بكل صنوفه وألوانه، فلا صحف ولا كتب ولا مذياع، ولا إنسان واحد يقرؤه السلام! ! حتى الأثاث الذي كان موجوداً – أصلاً– بقصر المرج استكثر على محمد نجيب أن يتمتع به .. فأخلى القصر منه وبقي (البطل العجوز) يعلق ملابسه على حبال مدها بيديه بطول الغرفة التي كان ينام بها! ! ولم يكن هناك ما يمكن أن يؤنس وحشته غير مجموعة من القطط كان يطعمها بيديه، وينيمها معه في نفس فراشه لكي تذود عنه الفئران التي كانت تحيل ليله إلى جحيم مستحيل أن يحتمله إنسان يحس ويعي.

* * *

تفضي السيرة الذاتية للواء محمد نجيب إلى أنه لم يكن يدرك لعبة السياسة -كما كان الشأن مع أنور السادات- بل ظل حبيس فكرة الرئيس الكبير لأعضاء من عمر أولاده، وهكذا أوصلته هذه الفكرة إلى (الحظ العاثر) وإذا ما أمكننا أن نميز في شخصية ما ميزة أساسية لا تتغير أبداً تظهر باستمرار وتعبر عن نفسها بتكرار نفس الخبرات التي مرت بها، فإن ما يثير عجبنا حقاً هو الحالات التي يظهر فيها الشخص وكأن الخبرة قد مرت به وهو سلبي لا يستطيع أن يتحاشاها أو يدفعها عن نفسه المرة بعد مرة . ويذكر (فرويد) من ذلك سيدة تزوجت ثلاث مرات وكان كل زوج يمرض في كل مرة وتظل تمرضه إلى أن يواتيه أجله.

ولعل من أروع ما كتبه الشاعر (تاسو) في ملحمته الغنائية (تحرير القدس) ما يصور هذا القدر العجيب من هذه الأمور، ففي هذه الملحمة يقتل البطل (تانكرين) دون أن يفطن لحبيبته (كلورنيدا) عندما بارزته متنكرة في زي فارس من الأعداء، وبعد أن دفنوها سار على غير هدى إلى غابة سحرية كانت ترعب رجال الجيش الصليبي، وهناك سحب سيفه وضرب به إحدى الأشجار الطويلة بحيث خرجت الدماء تتدفق من الشجرة وصوت (كلورنيدا) حبيبته التي كانت قد لجأت روحها إلى الشجرة تصرخ معاتبة (تانكرين) لأنه قتل حبيبته مرة ثانية مثلما قتلها في المرة الأولى.

هنا في حالة محمد نجيب كان القتل بطيئاً وليس سريعاً .

والواقع أن حياتنا مع أنفسنا غير واقعية، لأننا ننظر إليها دائماً بعيون مغرضة، فتراعي رغباتنا، ولا نأخذ في اعتبارنا سوى أنفسنا. وغالباً ما نفترض أننا على صواب، وأن سوانا هم المخطئون، وربما كانوا أبرياء، والعهدة في هذا الرأي على سوء حالتنا الهضمية أو غير ذلك من دواعي الظن بالناس.

ولنا أن نتساءل ونحن نحلل شخصية اللواء محمد نجيب فيما إذا لم يكن على

دراية بثورة يوليو١٩٥٢ ولم يوضع على هرمها – كما جرى – هل كان تغير شيء من شخصيته.

لو سلمنا بأن الذات ليست شيئاً محضراً بل شيئاً سائراً في طور التكوين بما يجده المرء حوله من مجال لاختيار الأعمال، لتجلى لنا حقيقة الوضع من فورها.

إن تكليف محمد نجيب بالبقاء في عمله على الرغم من الخطر الذي كان يحيق بحياته، معناه أنه وجد نفسه في هذا العمل، فإن نكس آخر الأمر وآثر لنفسه السلامة والراحة، فمعنى ذلك أنه آثر أن يكون له ذلك النوع من الذات. ووجه الخطأ هو الفصل بين الولع أو المصلحة وبين الذات واعتبارها غاية والولع بالأشياء أو الأعمال أوالأشخاص وسيلة، فالحق أن الذات والولع اسمان غير متغايرين لحقيقة واحدة، أي أن نوع الولع المقرون بشيء ما وفقدانه يبينان نوع الذاتية الموجودة ويقيسانها.

فإذا ذكرنا أنفسنا بأن معنى الولع هو اتحاد الذات الفعالة المتحركة بشيء من الأشياء قضى على هذه الثنائية قضاءً مبرماً.

إن اللواء محمد نجيب الذي باهى الناس بأنه عمل وفق مبدئه، ربما كان رجلاً معانداً في تطبيق آرائه دون أن يتعلم من الخبرة آراء أفضل منها فتخيل أن هناك مبدأً نظرياً برر عمله من دون أن يدرك أن مبدأه في ذاته كان يحتاج إلى ما يبرره.

ومحمد نجيب دخل باب الشهرة عن طريق وضعه في مقام (الأب) لثورة يوليو المصرية، وعندما بدأ الأب يشعر أن من واجبه ممارسة صلاحيته، نحي من قبل أولاده لأنه كان في الأساس أباً غير حقيقياً، ولهذا سهل إزاحته ومن ثم حكم الشباب. وقد قبل الأب ما أوصله له الأولاد بالتبني لأن من طبيعته الطيبة والدماثة ولأنه غير سياسي.

إن الإجراءات التي اتخذت ضده من حيث وضعه في الإقامة المنفردة بالشكل الذي

رويناه، يدل على مدى خوف أعدائه منه ومن الجماهير. ففي البداية حافظ محمد نجيب على هرم الثورة المصرية وأعطى للشعب اطمئنانا للغد، ولما أزيح تضاعف خوف الأعداء منه وباتوا يخشون رهبته، ولهذا أمسكوا بخناقه وأبقوه في الوضع الذي ذكرناه.

وفي كل الحالات يمكن وصف حالة محمد نجيب في أنه كان غير سياسي في منصب سياسي يقتضي اللعب على الحبال، وإذ الحبال لا يجدها (محمد نجيب) إلا في مكان إقامته الأخيرة لوضع ملابسه عليها .

لقد ضاعت من الأب سلطته في غفلة منه فكانت زلته كبيرة ولكنه كان كبير النفس غير معترفا بهزيمته، والدليل على ذلك إرساله برقيات التأييد في مناسبات عدة إلى من وضعوه في السجن شادا من أزرهم.

المراجع:

١. أنور عبد الملك : مصر مجتمع جديد يبنيه العسكريون دار الطليعة –بيروت ١٩٦٤

٢. محمد نجيب : كلمتي للتاريخ بيروت ١٩٧٥

٣. مجلة أخر ساعة–القاهرة العدد ٣١٧٠ ٢٦ يوليو١٩٩٥ حسن عـلام : اسم محمد نجيب لن يسقط من ذاكرة التاريخ أبداً

٤. مجلة أخر ساعة –القاهرة العـدد ٣١٧٦ ٦ سبتمبر ١٩٩٥ حلمـي سـلام : محمد نجيب والبداية .. كلمة

. 5-Ernest jones : the life and Work of Sigmund Freud . Basic Books . New York 1955

الملك فاروق الأول

تتمحور الملامح النفسية لشخصية الملك فاروق الأول، ملك مصر بين ١٩٣٦-١٩٥٢ في جوحه إلى الجنس وإلى العبث والاستهتار بحيث أن الزمن لم يستطع أن يبدل من طباعه، رغم المسؤولية الكبيرة التي وضع بها وهو في السادسة عشرة من عمره.

بعد وفاة والد فاروق الملك فؤاد الأول في ٢٨ نيسان عام ١٩٣٦ بأسبوع واحد، وصل هذا بطريق البحر إلى ميناء الإسكندرية قادماً من لندن ليصبح ملك مصر الجديد.

كان طويل القامة يتميز بالأناقة والرشاقة، وتبدو على وجه الوسيم سمات البراءة والطيبة، وتعلو ملامحه مسحة غريبة امتزجت فيها الفرحة بالحزن والنضارة بالشحوب والسعادة بالهم القلق .

ولما كان شعور فاروق بالهم والاضطراب طبيعيا، على الرغم من ابتهاجه بعودته إلى مصر بعد الفترة التي أمضاها في إنجلترا، التي أرسله إليها والده فؤاد ليأخذ نصيبه من الدراسة والثقافة، كان القلق والخوف من المستقبل المجهول يساورانه بسبب ما ينتظر أن يواجهه – مع صغر سنه وقلة تجاربه – من مسؤوليات جسيمة والتزامات دقيقة وصدام متوقع مع أكبر قوتين في مصر وقتذاك وهما قوة السفارة البريطانية وقوة حزب الوفد الذي كان يرأسه زعيمه مصطفى النحاس باشا والذي كانت تؤيده وتشد أزره قاعدة شعبية عريضة من الشعب.

وبلغ الملك فاروق في ٢٩ تموز ١٩٣٧ سن الرشد حيث أصبح عمره ثمانية عشر عاماً بالحساب الهجري. ووفقاً للتقاليد الدستورية قام رئيس الوزراء بتقديم استقالته، وفي ذلك نشأ أول احتكاك بسبب الرغبة التي أبداها بعض مستشاري الملك بإقامة حفل ديني لتتويج الملك فاروق على عرش مصر، لكن مصطفى النحاس، وهو رئيس الوزراء، رفض هذه الفكرة تماماً بسبب مخالفتها للدستور، وصمم على أن الملك يجب أن يستمد سلطته من البرلمان وليس من السلطة الدينية. ورد الملك على معارضة النحاس رداً سريعاً فرفض ترشيح النحاس لأحد رجالات الوفد ليكون وزيراً للمعارف في الوزارة الجديدة بدعوى ما أشيع عنه من تصرفات غير مرضية.

وبقيت مصر تعيش في جو مضطرب خلال حكم الملك فاروق إلى أن قامت ثورة ٢٣ يوليو – تموز ١٩٥٢ وجرى الإحاطة به، وتسفيره عن طريق البحر إلى إيطاليا بعد أن تنازل عن عرشه لابنه الأمير أحمد فؤاد. وبقي هناك يعيش حياته الصاخبة التي عرف بها أثناء حكمه إلى أن مات.

والذي عرف عن أعماله أثناء حكمه هو طغيانه وعبثه بالدستور وتجاهله حقوق الشعب واستعلاءه عليه وتدخله غير المشروع في شؤون الحكم وأسلوبي التوجيهات الملكية والنطق الملكي القديم – اللذين ابتدعهما – وأحكام سيطرته على الجيش بوضع الجهلاء من رجاله على رأس قياداته وسيطرته على الشركات ودوائر المال وتحكمه في الراتب والألقاب واستغلال منصبه كملك للإثراء غير المشروع ونهمه إلى المال واستغلاله هو وحاشيته حرب فلسطين لتضخيم ثرواتهم وسرقاته المشينة من الأفراد..الخ.

وتدل بعض مظاهر طغيانه على أنه إذا غضب على وزير أو موظف كبير لأتفه الأسباب كان يعلن عدم رضائه عنه ويضطره إلى الاستقالة . وقد نحى شيخ الأزهر (الشيخ عبد المجيد سليم) عن منصبه في سبتمبر– ايلول عام١٩٥١ لمجرد تلميحه إلى

الإسراف الذي كان يكتنف رحلاته إلى كابري والريفيرا من ملاهي أوروبا وقال في ذلك كلمته المأثورة :(تقتير هنا وإسراف هناك) فما أن وصلت هذه الكلمة إلى مسامع الملك فاروق حتى ثار وأصدر أمراً بإقالته من منصبه وكان فاروق في ذلك الوقت يعبث ويلعب في ملاهي أوروبا حتى أصبحت سمعته مضغة في الأفواه.

وأدى نهمه إلى المال أن امتدت يده إلى سرقة الأفراد دون خجل أو استحياء،كان إذا علم بوجود تحفة في دار أحد الأعيان يأمر بنقلها فورا إلى قصر عابدين فلا يسع صاحبها إلا أن يذعن ويعتبرها هدية للذات الملكية. وكان إذا جلس إلى موائد القمار يغش أحيانا في اللعب ويسرق ممن يلاعبونه ما يريد حيث كانوا لا يجرؤون على مساءلته على هذا التصرف المنكر احتراما لذاته الملكية أو ابتغاء الزلفى لديه. وفي سنة ١٩٤٤ سرق فاروق سيف الإمبراطور بهلوى إمبراطور إيران السابق ونياشينه وذلك أثر وفاته في جنوب إفريقيا ونقل جثمانه إلى مصر، فقد دفن بعض الوقت في مقابر الأسرة المالكة ووضع سيفه الخاص ونياشينه في تابوته، وعندما أرادت حكومة إيران في عهد نجله نقل الجثمان إلى طهران اكتشف سفيرها في القاهرة أن سيف الإمبراطور ونياشينه انتزعا من جوار جثته، مما جعل لهذه الحادثة ضجة كبيرة، إذ طالبت حكومة إيران بهذه المخلفات الثمينة، فأجاب القصر أنه لا وجود لها، وتبين أن فاروق قد سرقها وأخفاها في قصر القبة. وذهبت عبثا مطالبة حكومة إيران بها طيلة ثماني سنوات حتى عثر عليها في قصر القبة بعد خلع فاروق فسلمت إلى السفير الإيراني بالقاهرة في شباط عام ١٩٥٣ وأعيدت إلى حكومة إيران .

على أن الحياة الخاصة لفاروق كان لها أثرها في التمهيد للثورة، فقد كانت بعيدة عن الفضائل والأخلاق القويمة: كان من الناحية الشخصية والخلقية فاسد السلوك يستكثر من الخليلات والعشيقات وجلهن من النساء الساقطات أو الراقصات

المستهترات مما ينم عن شخصية وضيعة وشذوذ في الفساد. ومن مظاهر هذا الشذوذ أنه لم يتورع مرات عديدة من السطو على الأعراض والاغتصاب.

والى جانب هذه المخازي استفحل فيه داء القمار على مر السنين حتى أصبح مدمنـا عليه. واشتهرت بعض الأندية بغشيانه لها محاطا بحثالة القوم، وكان يلعـب الميسر في بعضها كنادي السيارات وكازينو الحلمية بالاس وملهى الاسكارابيه وأبراج الأهرام. وكان رجال الحرس الملكي والبوليس السري يحرسـون كـل مكـان يـأوي إليـه، وكـان منظرهم وهم يسهرون حتى الصباح حول أنديـة القمـار الـتي يغشـاها منظـرا يدعـو إلى الاشمئزاز .

ومن مظاهر استهتاره أنه كان يوقع بعض القرارات الهامة ويصدر أوامـره في شـؤون الدولة على موائد الميسر وعلى مرأى ومسمع من جلسائه اللاعبين معه من حثالة القوم.

كان فاروق في الحادية والعشرين من العمر حين أصبحت هيلـين موصـيرى صديقـة له. وهناك هاتف خاص بجوار سريرها اعتاد فاروق أن يتصل بـهـا في الواحـدة صباحـا قائلا :

– أرغب في مجموعة من الناس ألعب معهم القمار فورا،

وترتب له هيلين المجموعة.

ويتصل فاروق بهيلين قائلا :

أريد فتاة جديدة،

اختارت هيلين ...ايرين...

وايرين جنيل يهودية،ثرية من الإسكندرية، تجيد ست لغات.

تزوجت في سن السابعة عشرة من لويـس نجـار، بريطـاني يـهودي غـني، انضـم للجيش البريطاني. ليلة الزفاف قضياها معا في فندق مينا هاوس – أوبروى.

بعد أربع سنوات ونصف حصلت على الطلاق لتلتقي بفاروق عقب الطلاق بفترة قصيرة. وشجعها السفير البريطاني - السير مايلز لامبسون - اللورد كيلرن فيما بعد- على لقاء فاروق باعتبار أنها يهودية تكره الألمان وستحاول أن تجعل الملك، الذي يميل إلى الألمان، يبتعد عنهم، كما يأمل السفير.

اللقاء الأول بين فاروق وايرين تم في قصر المنتزه.

نزلت إيرين تستحم في البحر بثوب استحمام - مايوه أبيض - ووقف فاروق يرقبها بزي عسكري.

بعد الاستحمام تركت (صندلها) على الشاطئ وطلبت من فاروق أن يحضره لها في القصر، فجاء به !

فانصرفت على الفور بسيارتها (رولزرويس)

أصرت إيرين على أن يحلق ذقنه فرفض.

واستمرت علاقتهما الهاتفية شهرا كاملا بين شد وجذب حول لحية صاحب الجلالة ! ويلتقيان بانتظام شهرين كاملين في علاقة صداقة! يدعوها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في قصر بعابدين.

وفي حكاية أخرى وقع في غرام النبيلة طوسون التي تزوجت منذ عامين من النبيل حسن طوسون ابن الأمير عمرطوسون، وهي شقراء جميلة من أصل شركسي، وحاول المستحيل أن ينال منها، وأن يطلق زوجته ويتزوج منها رغم أنها على ذمة زوجها.

ويتدخل القدر !!

في تشرين الثاني عام ١٩٤٦ كان النبيل حسن طوسون وزوجته عائدين من باريس بالسيارة في طريقهما إلى مرسيليا ليستقلا الباخرة إلى مصر.

على مسافة ثلاثين ميلا من باريس انحرفت عجلة السيارة على يد السائق

فاصطدمت السيارة بشجرة ومات حسن طوسون ولم تصب زوجته بسوء.

عندما سمع فاروق الخبر قال: ما لقيصر... عاد لقيصر!

وأمر بإعلان الحداد ثلاثة أيام، وتبع جنازة النبيل في القاهرة وهو يستقل السيارة وكان يردد:

- رجل يدخل القبر وآخر يخرج منه.

وعندما التقى بفاطمة طوسون لتعزيتها لم يثر موضوع الزواج، والتقى بها أكثر من مرة ودائما كان يتجنب حديث الزواج.

ولاحظت النبيلة تغير موقف فاروق منها.. كان يريدها وهي زوجة، والآن لايريدها.

بعد طلاق فاروق من فريدة عام ١٩٤٨ توقع رجال الحاشية أن يتزوج فاروق بفاطمة، ولكنها التقت في حفل بسفارة البرازيل بالأمير دون جوان الذي ينحدر من الأسرة المالكة في البرازيل وكان مارا بالقاهرة.

بعد ٣٦ ساعة من رحيله اتصل بالنبيلة يعرض عليها الزواج فوافقت، ولكنها لم تكن تستطيع أن تغادر مصر إلا بموافقة صاحب الجلالة.

طلبت أن يسمح لها بالسفر إلى سويسرا لعلاج ابنتها من الربو فوافق؟

- بعد سفرها علم فاروق بخطبتها من الأمير البرازيلي، ثار الملك وأرسل مبعوثا إلى باريس يطلب منها العودة لمناقشة الأمر بهدوء فاعتذرت؟

- عرض عليها المبعوث العرش باسم فاروق فقالت:

- هذا مستحيل، إني مخطوبة لرجل آخر.

لجأ المبعوث إلى تهديدها بحرمانها من اللقب ومن ثروتها الطائلة فقالت:

- الثروة لا تهمني.

- وسيحرمك من رؤية ابنتك.

- عندما تكبر ابنتي ستفهم أسباب تركي لها.

- وتزوجت وعاشت في البرازيل.

كما زاد في انحدار سمعته في الخارج رحلاته إلى أوروبا، فقد أخذت الصحف الأوربية والأمريكية تنشر أنباء هذه الرحلات وما كان يصحبها من مجون وشذوذ وإسراف وفضائح وتصرفات جنونية وانكباب على موائد القمار، فكان عنوانا سيئا لمصر في العالم. وقد تعددت رحلاته إلى الخارج، وكانت أولى رحلاته إلى قبرص في آب عام ١٩٤٧ على ظهر اليخت (فخر البحار) وكان على موعد في هذه الجزيرة مع ممثلة السينما ليليان كوهين (كاميليا) إحدى عشيقاته، وشهد الناس اتصالاته الماجنة معها بالجزيرة.

كانت كاميليا فاتنة الجسد... رائعة الجمال، رآها فاروق لأول مرة في أواخر عام ١٩٤٦ في إحدى سهراته(باوبرج الأهرام) حيث كانت هناك مع أحد منتجي السينما الذي منحها عقدا للعمل في السينما وغير اسمها من (ليليان كوهين) إلى كاميليا شرط أن تصبح عشيقته.

وحين غادرت كاميليا أوليليان كوهين أوبرج الأهرام مع المنتج السينمائي تعقبها أحد رجال (كريم ثابت) المستشار الصحفي للملك وانتظرها هذا الرجل حتى أمكن أن يتحدث معها على انفراد وسألها بكل صراحة والوضوح: أتودين أن أقدمك إلى جلالة الملك؟.

في ظل هذه الظروف وهذا المناخ تعرف فاروق بكاميليا وفتن بها عندما رآها.. وفرحت الشابة اليهودية (ليليان كوهين) بالتأكيد بأن تقابل ملك مصر وأن يختارها دون غيرها من النساء. لقيها فاروق لأول مرة في إحدى غرف قصر عابدين.. التقيا معا رجل وامرأة. فأرضته (ليليان كوهين) وأمتعته وأنسته في لحظات النشوة والتلاقي

حزنه وعجزه. وتعلق بها فاروق كما لم يتعلق بأي امرأة من قبل. تعددت لقاءتهما الخاصة والمنفردة، وفكر فاروق من شدة عشقه لكاميليا وجسدها أن يمضي معها إجازة في مكان بعيد عن مصر، واختار قبرص بناء على رغبة كاميليا.

أمر فاروق بإعداد يخته (فخر البحار) للقيام برحلة في البحر المتوسط، واختار لصحبته في هذه الرحلة اثني عشر من حرسه وخدمه الذين يعرفون علاقته بكاميليا. وأبحر إلى قبرص، بينما بعث كاميليا تسبقه بالطائرة إلى هناك حتى لا يفتضح أمرهما.

ورغم ما اتخذه فاروق من احتياطات وإجراءات للاستمتاع بإجازة خاصة مع عشيقته ومحبوبته كاميليا بعيدا عن العيون، إلا أن وجود اليخت الملكي (فخر البحار) في ميناء فماغوستا القبرصي أثار انتباه قائد البحرية البريطانية، فسعى إلى لقاء الملك فاروق ودعاه إلى العشاء.. كما تلقى فاروق دعوة مماثلة من (سير شارل وولى) الحاكم البريطاني لجزيرة قبرص في ذلك الوقت.

ولكن أنباء ملك مصر الذي ظهر فجأة في قبرص وظهرت معه هناك الممثلة كاميليا كان من المستحيل أن تحجب عن القاهرة، وعن الملكة فريدة زوجة فاروق.

حزنت الملكة وغضبت، وغضب فاروق أيضا بدوره عندما عرف أن فضائحه في قبرص ولهوه مع عشيقته كاميليا وصلت إلى القاهرة.. فغادر قبرص دون أن يودع كاميليا متجها إلى مرسين بتركيا. ويبدو أنه خشي من تهديد كاميليا بالانتحار والذي وصله من مرسين إذا لم يعد إلى قبرص، فعاد مرة أخرى إلى فماغوستا.

وحاول فاروق تهدئة كاميليا واسترضاءها فاشترى لها بيتا في جزيرة رودس وأمضى معها أياما في خلوة واستمتاع في الوقت الذي كان فيه اسماعيل صدقي رئيس الوزراء في شدة الانزعاج لغياب الملك عن القاهرة، ولما سمع عن صولاته وجولاته مع عشيقته ليليان كوهين الشهيرة باسم كاميليا، أرسل يطلب مقابلة الملك. وطار بالفعل إلى رودس

لمقابلته ، وهناك وبعد نقاش طويل اقتنع فاروق بضرورة العودة إلى القاهرة فورا ، وافترق فاروق عن كاميليا.

ولم تمض شهور على ذلك حتى اشتاق فاروق لكاميليا، فاتصل بها في شقتها بالزمالك، ودعاها إلى نسيان ما حدث وهجره، ودعاها إلى فتح صفحة جديدة في علاقتهما.. فتكررت اللقاءات العاطفية بينهما، في الوقت الذي اشتعلت فيه الأحداث في فلسطين وأعلن اليهود قيام دولتهم هناك. وترددت في ذلك الوقت شائعات بأن كاميليا تعمل جاسوسة لصالح إسرائيل، وحذر النقراشي باشا رئيس الوزراء الملك فاروق من علاقته بكاميليا، ولكن فاروق لم يبال. بينما تصاعدت مشاكل فاروق مع زوجته فريدة واضطر لطلاقها لأنها لم تحقق حلم (الولد) ولي العهد ووريث العرش.

واستمرت علاقة فاروق بكاميليا وتمسك فاروق بعلاقته معها إلى أن ماتت في حادث سقوط طائرة.

وعندما سافر فاروق في صيف عام ١٩٥٠ إلى فرنسا بصحبة عدد ضخم من حاشيته المقربين تنكر باسم (فؤاد باشا المصري). وبرغم تنكره المفضوح أخذت الصحف العالمية تنشر أنباء مجونه واستهتاره ما يزري بسمعة مصر، متخذا من (دوفيل) بشمال فرنسا مصيفه الرسمي مقرا لذلك. ونشرت الصحف الفرنسية أن المغنية الفرنسية (آني بيريبه) ستغني أغنية النيل أمام فاروق وكان معروفا أن هذه المغنية إحدى عشيقاته.

وإزاء فساد نظام الحكم في مصر بعث زعماء المعارضة بكتاب خطير إلى فاروق في ١٨ تشرين الأول عام ١٩٥٠ ويعد هذا الكتاب وثيقة هامة من وثائق الحياة السياسية في ذلك العهد. فقد صارحوا (فاروق) وهو في أوج سلطانه وطغيانه باستنكار مساوئه ومساوئ نظام الحكم الذي كان المسؤول الأول عن إفساده وسوف نوجز ما ورد في هذا الكتاب مختتمين به سيرة حياة الملك فاروق ومن ثم التحليل النفسي لها.

(لقد أفسحت الأقدار مكانا في الحاشية الملكية لأشخاص لا يستحقون هذا الشرف فأساءوا النصح وأساءوا التصرف، بل أن منهم من حامت حول تصرفاتهم ظلال كثيفة من الشكوك والشبهات هي الآن مدار التحقيق الجنائي الخاص بأسلحة جيشنا حتى ساد الاعتقاد بين الناس أن يد العدالة ستقصر حتما عن تناولهم بحكم مراكزهم، كما ساد الاعتقاد من قبل أن الحكم لم يعد للدستور وأن النظام النيابي قد أضحى حبرا على ورق. ومن المحزن انه قد ترددت على الألسن والأقلام داخل البلاد، وخارجها أنباء هذه المساوئ وغيرها من الشائعات الذائعات التي لا تتفق مع كرامة البلاد حتى أصبحت سمعة الحكم المصري مضغة في الأفواه وأمست صحافة العالم تصورنا في صورة شعب مهين يسام الضيم فيسكت عليه ويساق كما تساق الأنعام والله يعلم أن الصدور منطوية على غضب تغلي مراجله وما يمسكها إلا بقية من أمل يعتصم به الصابرون).

هكذا كانت حياة الملك فاروق خليطا من الاستهتار بالمسؤولية مع انحراف كبير في الشخصية تجاه المباذل والعطش إلى المغامرات والحب والجنس بشكل مرضي إلى أن توفي عام ١٩٦٥.

* * *

شخصية الملك فاروق هي الشخصية اللاجتماعية (السيكوباتية)، وربما كان الانحراف هنا عرضا أو ظاهرة لمرض آخر، أي يمكن أنه يوجد في شخص يخلو من اضطراب الشخصية وبالعكس. صحيح أن الانحراف يمكن أن يؤدي بدوره إلى انفعالات نفسية مرضية أخرى إذا شعر بالحرج أو النقد أو الملاحقة، إلا أنه يمكن أن يكون هو الوجه البارز لمرض نفسي أو عقلي أشد وأعمق كالفصام أو الكآبة أو الهوس الدوري أو الصرع.

ويلاحظ في انحراف شخصية فاروق السيكوباتية الأمور التالية:

١. تأخر النضج العاطفي، ولا علاقة لذلك بالعمر الزمني، أي قد يكون المصاب في أواسط العمر ولكنه يتصرف كشاب مراهق.

٢. سرعة اتخاذ القرارات والتخلي عنها، أو التقلب وعدم الاستقرار في الموقف.

٣. عدم الشعور بالمسؤولية أو الواجب، واتخاذ اللذة والمتعة كالمحرك الأولي للسلوك.

٤. عدم التقيد بالمثل والمعايير والتقاليد الاجتماعية السائدة.

٥. عدم الاستبصار بنتائج الأمور ومصيرها.

٦. عدم التعلم من التجارب السابقة أو الاتعاظ من العقاب أو الألم، أو الاستفادة من المكافأة أو التشجيع.

٧. السطحية أو الضحالة العاطفية بالنقص.

وفي استعراضنا لهذه المحطات نرى الملامح التالية في شخصية الملك فاروق التي تتطابق مع سيكوباتيته وهي أنه كان مندفعا، أنانيا ، كذابا، معاكسا، يعشق اللذة، ويحب الحيلة، عديم الاستبصار وقليل الحذر، وهذه وغيرها أتي إثباتا لها من خلال عرضنا لسيرة حياته.

لقد اتفق(كرت شنايدر) مع (كريبلين) على أن مرض الشخصية يختلف كثيرا عن الذهان وهو الذي أطلق على مرض الشخصية تعبير (السيكوباتي) معتبرا إياه مرضا مستقلا عن الذهان وعن العصاب أيضا، فهو اضطراب في بناء وسلوك الشخصية يؤدي بالمريض إلى المقاساة بالمجتمع إلى الأذى والمعاناة. ولا تزال تصنيفات (شنايدر) مفيدة وأكثر الأبحاث وضوحا وتفسيرا لأنواع أمراض الشخصية وأشكالها السريرية.

أما (ادولف ماير) فاعتبر مرض الشخصية (رد فعل) أو (رجع) لعوامل كثيرة متداخلة ومشتركة جسمية ونفسية.

واعتبر البعض مرض الشخصية بـ (جنون أخلاقي)، إنه جنون يتضمن انحرافاً في المشاعر والهوايات والميول والمزاج والأخلاق دون إخلال أو نقص في القوة العقلية والذهنية. وهكذا ربط بين مرض الشخصية والمفهوم الأخلاقي للمرض، ولعل هذا التعريف أقرب إلى مرض الملك فاروق.

المراجع:

١. أصول الطب النفساني د. فخري الدباغ دار الطليعة - بيروت ١٩٨٣

٢. مجلة آخر ساعة العدد ٣١٧٠ ٢٦ يوليو١٩٩٥ جمال حماد : بين الساعات الأولى والساعات الأخيرة من حكم فاروق.

٣. مجلة آخر ساعة العدد ٣١٧٥ ٣٠ أغطس ١٩٩٥ محسن محمد : غراميات صاحب الجلالة.

4- Eysenck,H.J:Dimensions of Personality. Routledge & Kegan Paul ltd ,London 1956

الزعيم حسني الزعيم

الزعيم حسني الزعيم هو أول قائد عسكري أدخل لعبة العسكر في حكم سورية، ولهذا ستبقى شهرته طويلة مع أن مدة حكمه كانت أربعة أشهر ونصف الشهر، خلف فيها على سورية علامة ثابتة فيمن كان يقف وراء الستار في لعبته الانقلابية.

بدا انقلابه للوهلة الأولى موضع استغراب ولم يمض على استقلال البلاد سوى عامين، ولكن كتابات (مايلز كوبلاند) الاستخباراتي الأمريكي والذي ساعد الزعيم في انقلابه من خلال مطبخ السفارة الأمريكية بدمشق آن ذاك، كذلك وثائق وزارة الخارجية الأمريكية التي أفرج عنها لعتقها، أوضح هذان المرجعان أن هذا الانقلاب لم يكن إلا بمساندة أو بطبخ أو رضا الأمريكيين – حتى لا نظلم حسني الزعيم في ذلك – بعدما استقر رأيهم منذ عام ١٩٤٧ ونتيجة لـ (مبدأ ترومان) و(مشروع مارشال) على (ملء الفراغ) في مناطق الشرق الأوسط، وهو ما عارضه زعماء هذه المنطقة فكان عمل الأمريكان مد رجلهم إلى هذه المنطقة عبر الانقلابات العسكرية.

والسؤال: لماذا وضع الأمريكان سورية على حلبة صراع نفوذهم؟

لقد كان ذلك لاعتبارات شتى منها أنها كانت في وضع اقتصادي مريح، كما أن الحكمين التركي والفرنسي لم يفلحا في إذلال شعبها وترويضه، لهذا فقد كانت ظروف سورية ملائمة جداً لإجراء انتخابات ديمقراطية، تفسح المجال أمام مجموعة من

الزعماء على شيء من الذكاء والحنكة والتعاون للوصول إلى سدة الحكم واستلام مقاليد الأمور.

ولد الزعيم (وهي الرتبة التي كانها في الجيش وتساوي رتبة العميد) حسني الزعيم في دمشق عام ١٨٩٤ وقد اشترك، رغم تخرجه من الأكاديمية الحربية العثمانية في استانبول، في الثورة العربية على الأتراك، ثم التحق عام ١٩٢١ بالقوات الحربية الفرنسية في سورية، فتلقى تدريباً عسكرياً في فرنسا. وفي الحرب العالمية الثانية حارب مع قوات فيشي في سورية حيث سجنته قوات الحلفاء بعد انتصارها. وفي عام ١٩٤٤ أخلي سبيله بأمر من الرئيس شكري القوتلي وعاد فالتحق بالقوات السورية إلى أن كان يوم ٣٠ آذار ١٩٤٩ حين قام بانقلابه العسكري، وهو من إعداد وتخطيط الأمريكان -كما يذكر مايلز كوبلاند في كتابه لعبة الأمم ص٧٣ - وقد قام فريق العمل السياسي في السفارة الأمريكية بالعاصمة السورية دمشق - وبإدارة الميجر ميد بإنشاء علاقات صداقة منتظمة مع حسني الزعيم، الذي كان رئيساً لأركان الجيش السوري.

ومن خلال هذه الصداقة أوحى الميجر ميد لحسني الزعيم بفكرة القيام بانقلاب عسكري، وكما يقول كوبلاند: (اضطلعنا -نحن في السفارة- بمهمة وضع كامل خطته وإثبات كافة التفصيلات المعقدة. إلا أن تحركاتنا هذه لم تثر أكثر من شكوك عند الساسة السوريين، فقد كانت كلها سرية ومتقنة الوضع والتخطيط . وأثارت هذه الشكوك - فيما بعد - فضول رجال الصحافة الغربيين وفئات من الطلبة فقاموا بإجراء مقابلات مع من كان لهم ضلع في العملية كما قاموا بفحص الوثائق التي لها صلة بالموضوع. وكانت نتيجة ذلك أن اعترفوا بصحة شكوك الساسة السوريين ودقتها .. بيد أن الانقلاب حافظ على صبغة سورية محضة أمام أنظار العالم الخارجي إلى أن

بدأت الروائح تفوح منه وأخذت الألسن تتناقل: أن حسني الزعيم ليس أكثر من صبي من صبيان الأمريكان).

ويشير الأرشيف القومي للولايات الأمريكية المتحدة أن هذه لم تكن ترى داعياً لتثبيط همة حسني الزعيم وثنيه عن القيام بالانقلاب طالما أنه لا يزال مصمماً على إعادة الحكم البرلماني إلى البلاد متى ما سمحت الظروف بذلك، ولكن الزعيم أكد مراراً وتكراراً أنه لم يكن ينوي العودة بالبلاد إلى الحكم البرلماني، بل أنه عازم على الزج بالسياسيين الفاسدين في السجون، وإعادة تنظيم جهاز الحكومة على أساس أكثر فاعلية ، وإجراء الإصلاحات الضرورية في مجال الاقتصاد والحياة الاجتماعية، واتخاذ بعض الإجراءات الإيجابية لإنهاء النزاع العربي الإسرائيلي .. وكانت هذه الفكرة الأخيرة بمثابة المخدر الذي ثنى وزارة الخارجية الأمريكية عن عزمها على طلب إلغاء فكرة تنفيذ الانقلاب العسكري الأول في سورية.

وها قد وصل الزعيم إلى ما كان يطمح إليه فهل قدر أن يوفي بما اتفق فيه مع الأمريكان، وقد خبروه قبل أن يستلم الحكم رجلاً ليناً سهل الانقياد؟.

إن ماضي الزعيم وتدريبه لم يؤهلاه لإدارة بلده، فهو مع أنه جندي جيد بلا تجربة في شؤون الدولة وينزع إلى القرارات المتسرعة غير الصائبة، كما أن إهماله العلاقات الاجتماعية والإجراءات الإدارية، أبعد عنه فئات قوية في الحكومة والبلاد وحط من قدر إصلاحات الحكم المفيدة.

وما أن أذيع الاعتراف الأمريكي بنظام الحكم الجديد حتى بدا حسني الزعيم وكأنه رجل جديد لا يمت إلى الماضي بصلة. فقد طلب من دبلوماسيي السفارة الأمريكية في دمشق أن يتمثلوا له قياماً كلما دخل القاعة، وأنه من الضروري تبديل

كلمة (أنت) بكلمة(أنتم) في سياق خطابهم له، وهو الذي يتكلم الفرنسية، بل ويستحسن استبدالها بكلمة (صاحب الفخامة).

عَمِلَ الزعيم على تعزيز الجيش وإعادة تسليحه ورفع من معنوياته، وألحق الشرطة والدرك به، مما لم يعد بمقدور هذا الجيش التخلص من دوره السياسي، كما طهر الجهاز الحكومي من الدجالين والموظفين المرتشين وغير الأكفاء، وطلب من الموظفين أن يختاروا خلال عشرة أيام بين الخدمة العامة والأعمال والمصالح الخاصة، وبالتقيد التام بالدوام الرسمي وبمزيد من الإنجاز في العمل. أما جامعة دمشق فقد أدخل على مناهجها ونظامها الأساسي كل ما هو عصري وحديث، وقد جلد إثنا عشر خبازاً أدينوا ببيع خبزٍ فاسد أمام أفرانهم، وخططت مشروعات عامة عديدة، عقدت اتفاقيات لمرور أنابيب النفط عبر سورية، ولأول مرة منحت المرأة المتعلمة حق الانتخاب، وحظر استعمال ألقاب (باشا) و(بيك) وأمثالهما، ثم بدأت عمليات إزالة الأوقاف الذرية وإحلال قوانين مدنية وجنائية وتجارية عصرية محل قانون الشريعة الإسلامية، كما عيِّن محافظون جدد يتمتعون بالسلطتين المدنية والعسكرية كلتيهما بحيث بدا للرأي العام وكأنه يتبنى سياسة من النمط الأتاتوركي المعدل.

وتدريب حسني الزعيم العسكري الفرنسي قاده إلى تجنيد الأساليب والاصطلاحات الفنية الفرنسية في الجيش وهذا ما أوحى للشعب السوري، كثير الشك، بوجود نفوذ فرنسي، وأدى إلى إشاعة أن الزعيم أداة بيد الفرنسيين، وهو في الحقيقة قد ذكر (أن فرنسا صديقتنا وسنعمل كل ما نستطيع للحفاظ على صداقتها، وسيفتح عهد جديد من التعاون والتفاهم بين باريس ودمشق).

وهذا الكلام يقودنا إلى القول فيما إذا كان الزعيم قد انقلب على الأمريكيين بعد استلامه للسلطة، وسنجيب على هذا السؤال فيما بعد.

على أن الزعيم في غضون ثلاثة أشهر فقد معظم شعبيته وأثار عداء مختلف فئات المواطنين، فسياسته الموالية للغرب أثارت عليه الفئة المحايدة، وإصلاحاته العلمانية جلبت عليه سخط الزعماء الدينيين وأتباعهم من المدنيين.. فقد هزَّ المجتمع الدمشقي وأخرجه من تعصبه الشديد الصارم للتقاليد الدينية وأعلن على الملأ سخطه على اللباس العربي التقليدي والكوفية والعقال، فامتلأت الشوارع مجموعات غريبة وقديمة من القبعات الأوربية، وبرزت النساء أكثر حرية في الحياة العامة ورقصن على الأنغام الغربية في النوادي الليلية التي هي في حال سورية آنئذ مفتاح لنزعات الحياة العامة ودليل على طبيعة الحكم .

كما قوضت أساليبه الأوتوقراطية آمال الليبراليين، وسياسته الموالية لمصر أفقدته تأييد ومساندة الفئات الوحدوية العربية من ناحية والموالية للهاشميين من ناحية أخرى . ومحاولاته في ميداني الإصلاح المالي الحكومي والزراعي أوقعت الرعب في قلوب الطبقات الإقطاعية والتجارية النافذة التي تعرضت مصالحها الاستثمارية للخطر، أما عامة الناس الذين توقعوا كبرى الفوائد فأصابهم اليأس حين لم تتحقق الوعود الكثيرة التي قطعت.

والحق يقال أن حسني الزعيم كان عسكرياً نموذجياً شجاعاً، ولد كي يكونه. أراد أن يكون الشعب قطعة عسكرية يأتمر بإيعازاته وأن تكون سورية ثكنة. ولقد أيدته وصفقت له وأملت بانتصارات على يديه.واشتد تفاؤلها بعد معركة عسكرية على حدود الوطن مع إسرائيل التي برهن فيها أنه يحسن المغامرة والقتال.. لا يتصرف تصرف السياسيين، ليس على جبنهم.

كان يمكن لحكمه أن يمتد لمدة أطول ولكنه كان إنساناً وحيداً بلا جماعة، قوته الشعبية مؤقتة، تابعة لتقلبات الأنواء، لم يعتمد تنظيماً أو حزباً، خدعه التأييد الذي

لقيه في الأيام الأولى، وظن أن قوة شخصيته كفيلة بضمان استمرار الدعم الشعبي.

كان الجيش قوته، علاقته به انضباطية.. أمر وطاعة، وما كان يظن انه يخل بها. عندما أصبح رئيساً للجمهورية تلاشى الرباط الذي يشد القوات المسلحة إليـه، ولعبت فيها الأهواء والميول السياسية وتأثرت بالنقد الموجه إليه، فأخذت تتخلى عنه.

إن حكم الزعيم نبه الرأي العام إلى أخطار الديكتاتورية العسـكرية، ولكـن الجيش غدا آنذاك بالغ القوة وملتزماً جداً بدور سياسي لا يتيح لـه الوقـوع ثانيـة تحـت أمرة المدينين كلياً. بيد أنه أزال على أية حال كثيراً من (الأعشاب الميتة) – على حد تعبير باتريك سيل– من الحياة العامة السورية. فقد تكلم بلغة الإصلاح وأعطى وعوداً ولوأنها لم تتحقق، نزعت إلى تغيير طبيعة المساندة التي كان على أي حكـم سوري أن يعتمـد عليها. لقد أعجب بأتاتورك ولكنه كان أقل– لفوضاه المطلقة ونقص حوافزه وسذاجته– من أن يكون سياسياً يشيد ويبـني متناسقاً مع قـوة الزخـم الأصيـل الـذي حملـه إلى السلطة، بعد أن عاش ومات فقيراً، وهو الـذي روي عنـه قبولـه رشـوات وإثـراء غـير مشروع أبان حكمه.

ولا ريب أن نوايا الزعيم كانت طيبة خيرة ولكن جـهازه كـان فقـيراً، أو كمـا قـال بسمارك عـن الإيطـاليين (لهـم شـهية قويـة ولكـن أسـنانهم نخـرة)، فقـد رأى نفسـه كعسكري مصلح يحقن مواطنيه الخائرين بعزيمته وعنفوانه، ويعمل على بنـاء مجتمـع جديد مشع على أنقاض الحكم القديـم، ولكنـه بدا للآخريـن عينـة ونموذجـاً جيـداً أومتمقياً للسلطة من أجل السلطة فقط أو من أجل ثمراتـها ومنافعـها، وهـو نمـط غـير محصـور فقط في السياسة العربية.

إن بعض أهمية سيرته يكمن في أن هذا الدكتاتور الصاخب غير الكفء الذي تنقصه النظرة الواضحة للتنظيم السياسي أو الاجتماعي سعى إلى إعدام أنطون سعادة زعيم الحزب القومي الاجتماعي، وهذا ما جرى للزعيم أيضاً بغضون أسابيع قلائل بينهما.

وقد أعطت حادثة حسني الزعيم لكل من اهتم بدراستها أن عمالة أي حاكم لدولة عظمى — حتى ولو كانت من أقوى دول العالم — لا تكفي لضمان بقائه في الحكم واستمراره في السلطة. وليس هناك أي سحر أو فن في تقرير هذه الحقيقة، فما كانت ميكانيكية قيادته لتنطوي على أية براعة أو حسن صنعة مع إصراره على طريقتها وتشبثه بها. فلم تتح له فرصة ليلم بالنظرية الحديثة لفن القيادة، كما أنه لم يقتنع أن مهمة الحاكم الرئيسة هي أن يضع مرؤوسيه في ظروف لا يجدون فيها مهرباً من تأييده واتباع توجيهاته. لقد أمضى حسني الزعيم فترة طويلة من حياته في ظل ظروف عسكرية مشابهة للظروف التي تمر بها البلاد يومها ولهذا فقد اعتاد على حياة تنفيذ الأوامر دون اعتراض. لقد عامل مرؤوسيه وحتى أتباعه من كبار الضباط الذين كانوا الدعامة الرئيسة لحكمه بنفس الطريقة العسكرية التي نشأ بها. وما لبث بعد شهور أن بانت الحقيقة المؤلمة وهي أن حسني الزعيم أصبح لا يمثل أكثر من نفسه سواء في علاقاته مع مناصريه من الأمريكيين أو طبيعة معاملته لشعبه.

ودانت نهاية الزعيم صبيحة الرابع عشر من شهر أب ١٩٤٩ حين قامت مجموعة من أصدقائه الضباط بقيادة سامي الحناوي اسماً وأديب الشيشكلي فعلاً، بمحاصرة بيته وقتله ثم دفنه في المقبرة الفرنسية.

أما فيما يخص الاعتراضات النفسية على شخصية حسني الزعيم، فقد تعددت الروايات حولها ، من ذلك أنه لما كان سجيناً عام ١٩٤٤ في سجن القلعة بدمشق كان

يجاوره بنفس الغرفة السيد جورج عوض (الديرعطاني)* ونشأت صداقة بين الاثنين أطلع الزعيم خلالها رفيقه في السجن على أفكاره المستقبلية ومنها أنه سيسعى حين تستقل سورية في أن يصبح رئيساً لها، وكان يعزز كلامه بمصور لسورية كان يضع دبابيس على المواقع العسكرية، ومقدراً فيها كيف ينجح الانقلاب الجيد.

وحين نجح انقلابه ورتب الاستفتاء عليه أصدر مرسوماً على أن رئيس الدولة يجب أن يحمل رتبة مشير إذا كان رجلاً عسكرياً. وقد أضاع الزعيم لبه عندما ارتدى بزته العسكرية الفخمة وحمل عصا المرشالية وثمنها ثلاثة آلاف دولار التي هي على شكل مرقاق شوبك – كبير من الذهب والقطيفة الخضراء، ويمكن أن تشاهد في المتحف العسكري بدمشق، كما وضع أيضاً (المونوكل) على إحدى عينيه مثل ما كان يفعل ديكتاتوريو يوم ذاك الزمن وما قبله. وقد شوهد يختال مزهواً بنفسه أمام المرايا في مسكنه وسمع وهو يقول لزوجته (ستكونين ذات يوم ملكة) ثم أرسل رئيس الوزراء إلى مصر ليهدي إلى فاروق في مقره الصيفي في الإسكندرية، أرفع وسام سوري وهو جوهرة ثمينة صنعها خصيصاً للمناسبة الصائغون المهرة في باريس، بينما أمر رئيس مكتبه العسكري بوضع الخطط لتنظيم حرس خاص من المسلمين اليوغوسلافيين يقسمون على الولاء له فقط .

وكان الزعيم أقل نجاحاً كمناور سياسي، فقد أطارت السلطة بلبه، وأصبح همه، بعد أن قلق منذ البداية بسبب لا شرعية حكمه، أن يصبح رئيس جمهورية يتساوى والملوك ورؤساء الدول الذين عليه الآن أن يتعامل معهم.. إن طموحه هذا أو مزاجه العصبي المندفع قد قاداه إلى إبعاد كبار مؤيديه واحداً بعد آخر. وذكر الأمير عادل

* – من مقابلة أجريتها معه يوم ٢/٧/١٩٥٥ في بيته في دمشق.

أرسلان أنه كان عرضة لنوبات تفقده كل منطق، كما رأى الدكتور سامي الجندي أن حسني الزعيم كان مزيجاً من المعتوه ورجل الدولة. ويبدو أنه كان مريضاً مصاباً بزيادة البولة ولو لم يقتل لما عمر طويلاً.

* * *

ليس في إيراد سيرة الزعيم حسني الزعيم ما نحاكمه عليه سياسياً ، فنحن نحلل شخصيته نفسياً، ومما سمعناه وشاهدناه وقرأناه عن حياته.

حين استلم الحكم في سورية كان في الخامسة والخمسين وهو عمر كاف لتتوضح فيه الملامح العامة للشخصية ولتأخذ مساراً نهائياً لها.

ومن خلال حياته عاصر بعض الدكتاتوريين العظام من أمثال هتلر وموسوليني وقد تأثر ببعض ملامحهما، لهذا عاش بأحلام عريضة، قل أن يوجد مثله امرؤ واضحة فيه العقد النابليونية – نسبة إلى نابليون بونابرت .

وقد قيل أن نابليون كان يفتخر بأنه لم يقابل قط في حياته امرأة (صعبة)، فأجابته (هورتانس) على الفور قائلة: (ذلك لأنك لم تتعامل إلا مع نساء متساهلات). ألا يكون وضع حسني الزعيم متقارباً مع هذا المثل الذي سقناه. فهو شق طريقه في الجيش من خلال أفراد استطاع أن يرى جانبه المميز تجاههم، أما ما هو هذا التمييز فربما كان تافهاً في أمر وكبيراً في أمر آخر. ولكن (نرجسة) الزعيم كانت هي الغالبة والقائدة فيما رغب أن يصل إليه.

كانت تصرفاته تتسم بالعنف والتوتر والطيش، فإذا ما ركب رأسه لا يقبل جدلاً ولامناقشة مصمماً على أن يحكم بالقوة، ولهذا كان حكمه متذبذباً بين التأييد العارم له في بداية حكمه ونهايته وهي فترة قصيرة ما كان ليحدث هذا التذبذب لولا خيلاء

وعدم واقعية الزعيم في قيادته دفة الأمور بهذه النفسية المتسمة بالديكتاتورية.

وينتج التسامي بغريزة التغلب والسيطرة الحاكم الحازم وقواد الجند ورجال الأعمال ورؤساء العمال والزعماء الذين يحكمون رفاقهم بقوة خلقهم.. وهم لا يحجمون أيضاً عن إيقاع الألم إذا كان ذلك ضرورياً لإصلاح أمر في صلاحه خير للناس.

وحسني الزعيم حتى يبقي اسم كنينة كان عليه أن يمتلك هيبة تتفاعل بشكل أوبآخر مع قدرة لا على اتخاذ القرار وحسب، بل على إنفاذ القرار المتخذ، فالزعيم لايستطيع دون سلطة إنفاذ قرار ما، ولكن ما أراده الزعيم قضي عليه سريعاً.

وقد دعا هذا الزعيم الإنسان العادي إلى الانضمام إلى مؤسسات تتبنى قيماً معروفة جيداً، مثل فكرة التجديد والتحديث كما طرحها هو، أو مثل فكرة الوطن مثلما طرحتها الفاشستية، أو مثل فكرة الإنسانية مثلما طرحتها الستالينية. والمواطن العادي لا يستطيع أن يرفض الدعوة الموجهة إليه، بل من واجبه أن يقبلها، لكنه سرعان ما يستدرك ، أنه باسم تلك القيم الأبدية يقترف جرائم مرعبة، مما ينتج عن ذلك حالة من الانفصام والتفكك. كل (زعيمي) هو، في الوقت نفسه، ضد الزعيم، وكل فاشستي ضد الفاشستية، وكل نازي ضد النازية إلى حد ما.

وهكذا يولد اليأس، من استحالة القدرة على العيش في ظل أنظمة ديكتاتورية، مما يدفع إلى الانتحار، ذلك أنه فصام هذه الأنظمة المتسلطة منعكساً على الأفراد.

وقد نشر (هيوج فريمان) أستاذ علم النفس بجامعة سالفورد البريطانية دراسة هامة عن الطغاة عبر التاريخ. قال بها أن الديكتاتور يسقط، في نهاية الأمر، فريسة الإغراء في أن يسمع ما يحب سماعه، لا ما يجب أن يسمعه. وبعبارة أخرى فإنه لا يهتم بأن يقال له ما يساعده على تنفيذ سياسته فحسب.

حدث هذا مع الزعيم الألماني هتلر، ومع الزعيم السوفيتي ستالين، وكانت النتيجة

أنهما قاما بتلك المحاكمة الهزلية المزيفة لأعدائهما وأصدرا الأوامر بإعدامهم طبقاً للتقارير التي قالت بأن الشعب يكرههما!

وتسري هذه القاعدة على كل حاكم في الدول الديمقراطية أيضاً، فإن الأجهزة التي تعمل معهم لا تكتب لهم إلا ما يؤيد سياستهم.

في عام ١٩٧٠ وضعت وكالة المخابرات المركزية تقريراً هاماً يقول بأن أي هجوم أمريكي على كمبوديا لن ينجح وسيفشل حتماً. ولكن المسؤولين في البيت الأبيض لم يقدموا التقرير إلى الرئيس نيكسون وقدموا إليه تقريراً آخر بأن الهجوم الأمريكي على كمبوديا سيحقق النصر!.

وقد تكرر ذلك مع رئيسة بريطانيا السيدة مرجريت تاتشر، فإنها بعد عشر سنوات من السلطة في حزب المحافظين ورئاسة الوزارة فإن كل من حولها قدموا إليها تقارير بأنه لا يمكن الاستغناء عنها وان بريطانيا لا تستطيع أن تستقر دونها أو بعيداً عنها، وخدعوها بالاستفتاءات المزيفة، وكانت النتيجة أنها لم تعرف ما يجري حولها مما أدى إلى سقوطها.

وقال عالم النفس "فريمان" أن كل قرار يصدره الحاكم، يبنى على معلومات حقيقية أو على اقتناعه الشخصي. والمنافقون يحاولون دائماً أن تكون المعلومات متفقة مع قناعات من يجلس في السلطة.

نستخلص مما ذكرناه أن نهاية الزعيم حسني الزعيم انتهت بسرعة لأنها أتت تحت رغبة صاحبها في ملء نقص نرجسي انطوى عليه منذ أمد بعيد.

ويكفي أن طموحه قد أوصله إلى ما أراد أن يصل إليه، ولكن تهوره وسرعة تغييره للبنى التحتية للمجتمع أسرعت في طوي صفحته، وبقي ما بقي من أثر لهذا الزعيم في الانقلابات التي تتابعت بعده، وأبقت اسمه نبراساً لها لأنه كان البادئ في ذلك.

المراجع:

١. د. سامي الجندي: البعث دار النهار – بيروت ١٩٦٩ .

٢. جوردون . هـ . ثوري: السياسة السورية والعسكريون ترجمة محمود ؤ
دار الجماهير–دمشق ١٩٦٩ .

٣. مايلز كوبلاند: لعبة الأمم ترجمة مروان خير مكتبة الزيتونة – ب
١٩٧٠ .

٤. باتريك سيل : الصراع على سورية ترجمة سمير عبده ومحمود فلاحـ
الأنوار – بيروت ١٩٦٨ .

٥. مجلة مواقف – لندن : العدد ٧٠–٧١ شتاء– ربيع ١٩٩٣

٦. مجلة أخر ساعة–القاهرة : العدد ٢٩٦١ ٢٤ يوليو١٩٩١ .

٧. مجلة اليوم السابع–باريس: ٢٨/٥/١٩٨٤ .

Iational Archives (USNA) : Record Group 59 , General ecords of the Department of State , Dectral Files,1941- 1959
Record Group 84 , Records of the Diplomatic Posts , amascas Post Files , 1947- 1955 .

عبد الكريم قاسم

حين قاد عبد الكريم قاسم الثورة ضد الملكية في العراق اعتبر الوطني الأول في هذا البلد، وبين هذه الثورة ومصرعه (١٩٥٨-١٩٦٣) أخرج هذا (اللواء) من قاموس البطولة إلى خانة الشعوبية والجنون بل إلى الاختلال العقلي.

ولأن مثل هذه التركيبة من الناس يستطيع المحلل النفسي الوصول إليها بسرعة، فقد أوقفنا الصفحات التالية لتناول السيرة الذاتية للواء عبد الكريم قاسم ثم محللين لشخصيته.

إذا كان نوري السعيد والملك فيصل قد قتلا في العراق إثر قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بزعامة وإشراف عبد الكريم قاسم، فقد قدر لهذا الأخير أن يقتل يوم ٨ شباط ١٩٦٣ يوم هزيمته الكبرى ونهايته بهذا المعنى لم يحكم (الزعيم الأوحد) – كما كان يحب أن يسمى– سوى أربعة أعوام ونصف العام، لكنها كانت كافية لإدخاله تاريخ القرن العشرين ومنطقة الشرق الأوسط من الباب الأكثر رعبا: باب الدم . فالحال أن العراق لم يكن قد عرف في تاريخه – وهو التاريخ الملطخ على الدوام بالكثير من الدماء– أحداثا دموية تعادل تلك التي عرفها خلال الفترة التي فصلت بين وصول قاسم إلى السلطة وخروجه منها.

كانت النوايا كلها طيبة في البداية، وكانت ابتسامة عبد الكريم قاسم الطيبة واحدة

من علامات الثورة الأولى والإشارات التي تدفـع إلى التفاؤل بالمستقبل. وحتى المصير الدامي الذي كان من نصيب الأسرة المالكـة ونـوري السـعيد وأعوانـهما، غـض النـاس النظر عنه. فالوعود كانت كثيرة والأمل بالمستقبل كبيرا. فقط قلـة مـن النـاس كـانت تدرك أن العنف لا يولد إلا العنف وأن الانقلابات الدامية قد تكون لها بداية ولكنـها لا تكون ذات نهاية على الإطلاق. والسلطة التي نتجت عن الثورة، السلطة التي قادها عبد الكريم قاسم وسط العواصف والزوابع، كانت هي، إلى حـد كبـير، المسؤولة عـن إيصال الرجل إلى التحول من زعيم ثـوري وطـني تقدمـي، إلى ديكتـاتور دمـوي نـادر النوعية.

إذا عدنا إلى طفولة وصبا عبد الكريم قاسم فلعلنا سنرى فيها مؤشرا يشـي بالنهايـة التي كانت تنتظره. فطفولته ربما لم تكن عادية، ومع ذلك فقد تـابع، يافعـا، دراسـة ثانوية ثم عليا ناجحة قادته إلى الكلية الحربية ومن ثم إلى الجيـش حيـث راح يرتقـي الصفوف جريئا مقداما من زملائه صلبا في مساره، حتى بلغ في عـام ١٩٥٥ رتبـة عليـا في الجيش كضابط رفيع. وبدأ وعيه الوطـني والاجتمـاعي يتبلـور مـع ازديـاد انخـراط السلطة العراقية في المشاريع الأجنبية وخاصة مشروع حلف بغداد، وهو ما جعله يقـرر المساهمة في العمل من أجل قلب نظام الحكـم، فبـات الرجـل منـذ عـام ١٩٥٧ قاسمـا مشتركا بين المحاولات الانقلابية والمؤامرات كافة التي راحت تدبر. وقد قـال خصـوم قاسم لاحقا أنه كان هو المسؤول الوحيد عنـه، وأن شـريكه في زعامـة الثـورة وخصمـه لاحقا عبد السلام عارف كان بريئا منه، وهو أمر طبيعي، فـالمنتصر هـو الـذي يكتـب التاريخ، دائما بما يماشيه. وحين انتصرت الثورة قفز قاسم إلى الصف الأمامي فإذا بـه الرجل الأول في السلطة، وما أن تمكن من ذلك حتى راح يبدي حماسة أقـل للوحـدة العربية التي كانت من أهداف الثورة، مفضلا العمل من أجل تقويم الأوضـاع الداخليـة

قبل أي تحرك عربي أو خارجي. وهذا ما جعل عداء الرئيس جمال عبد الناصر له بالاشتداد، وهو الذي كان قد ساند الثورة منذ البداية لكي تساند وحدته مع سورية وتطلعاته الوحدوية العربية الشاملة.

وانطلاقاً من هذا الواقع، بدأت الخصومة تشتد بين قاسم وعبد السلام عارف الذي راح يجول مناطق العراق مؤيداً عبد الناصر منادياً بالوحدة العربية. لكن قاسم، على رغم عدائه للشيوعيين العراقيين الأقوياء، وجد فيهم سنداً قوياً له ضد التيار الناصري وهم الذين ساندوه، خاصة في تحطيم التحرك العسكري الناصري، أو بالأحرى (القومي) الذي قاده الشواف في الموصل، وانتهى بقمع دموي نادر المثال، وبانتصار حاسم لعبد الكريم قاسم. ولكن هذا بعد أن استخدم الشيوعيين في معركته مع العروبيين والناصريين، انقلب على حلفائه وراح يبطش بهم، وهو ما قلص الدعم الذي كان عبد الكريم قاسم يلقاه في الشارع العراقي، وهذا ما قاده إلى التصلب في موقفه فاندفع في سياسته الدامية حيال الأحزاب السياسية في العام ١٩٦٠، قامعاً اليمين واليسار والوسط على السواء، دون تفرقة بين عناصر مدنية وأخرى عسكرية، بين من كان حليفاً له ومن كان خصمه الشرس. ومنذ ذلك الحين بدا واضحاً أن نهايته باتت قريبة وأنه بات أسير العناصر الأكثر تطرفاً في الجيش.

ثم راحت تروى عنه حكايات الجنون وأساطير الرعب والعزلة في مكتبه بوزارة الدفاع. وأخذت نهايته الفعلية تظهر في ربيع ١٩٦١ حين ثار عليه حلفاؤه الأكراد الذين كانوا قد ساندوه في السابق وصدقوا الوعود الاستقلالية التي أغدقها عليهم. هذا في وقت زادت فيه عزلته العربية بعد مطالبته بضم الكويت إلى العراق وموقف عبد الناصر ضده كلياً في ذلك. وازدادت الانشقاقات في الداخل، وبات واضحاً خلال شهور عديدة أن موعد نهاية الرجل يقترب. وطوال العام ١٩٦٢ دخل العديد من عناصر

الجيش في صراع مفتوح ضده، غالباً ما كان بقيادة عبد السلام عارف. وتطور ذلك الصراع في وقت راح يضعف فيه نفوذ قاسم، حتى انتهى الأمر بانقلاب الثامن من شباط ١٩٦٣ الذي قضى عليه، رغم استمراره في المقاومة.

وكانت نهاية قاسم في اليوم الثاني حيث تمكن الانقلابيون وجماهيرهم من قتله فيما كان يسعى للهرب، وبموته انتهى فصل من تاريخ العراق الحديث عرف بعهد عبد الكريم قاسم.

وإذا كان عهد هذا (الزعيم) اتصف بالدموية فلنرجع قليلا إلى اليوم الذي انتصر فيه في ثورته، فلعل هذا اليوم هو الذي حمل مفاجآت المستقبل.

كانت مشكلة الذخيرة هي التي كان يفكر بها الزعيم عبد الكريم قاسم ليلا نهارا وهو يتولى قيادة لواء المدرعات التاسع عشر، وفجأة جاء نوري السعيد وأمره بأن يتحرك إلى لبنان وأيضا لواء العشرين بأن يتحرك إلى عمان ويتولى آمرته العقيد عبد السلام عارف يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ وقدم عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف كشفا بما يريدونه من ذخيرة حية وعتاد.. وحرصا على أن يطلبا أكثر مما يحتاجا، لأنهم بذلك يكونوا قد جردوا باقي ألوية الجيش الموالية للملك من الذخائر.

وبفضل هدوء أعصابهم لم يكتشف نوري السعيد هذه الخطة العجيبة وأمر بإعطائهم ما يريدونه.

وقد حدد موعد تحرك اللوائين الساعة العاشرة قبل منتصف ليل ١٣-١٤ تموز، والطريق الوحيدة لمرور الجيش الذاهب إلى عمان هو الطريق الذي يقع فيه (قصر الرحاب) حيث يقيم فيه الملك فيصل وخاله الوصي عبد الإله.

وحين تبلغ الزعيم عبد الكريم قاسم والعقيد عبد السلام عارف أوامر التحرك إلى لبنان والأردن، اجتمعا على الفور سرا وتداولا في الأمر وتساءلا هل يجوز أن يقتل

العربي إخوانه وأحبابه العرب، ويوجه الرصاص إلى صدورهم؟ فقررا العصيان والتمرد على أوامر الحكومة واستدعيا إخوانهما من الضباط الأحرار الموثوقين وتشاوروا فيما بينهم، وتم الرأي على إطلاق رصاصة (الحرية) وإزالة حكم الطغيان.

وضعت الخطة وقسمت مناطق احتلال مدينة بغداد، وتحرك اللواء العشرين بقيادة معاون آمره العقيد عبد السلام عارف، واستلم طريقه. وفي نفس الوقت تحرك اللواء التاسع عشر، وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف ليل ١٤ تموز، وسار اللواء العشرين من طريق، واللواء التاسع عشر من طريق آخر. فلما بلغت طلائع هذا اللواء محطة الإذاعة في قلب بغداد حاصرتها واستولت عليها فورا ثم اتجهت إلى البرق والبريد واستولت على مكاتبه ودوائره، بينما اتجه اللواء العشرين بطريق عمان، وبوصول طلائعه إلى قصر الرحاب حاصرت القصر حسب الأوامر المعطاة إليها وأنذرت الحرس الملكي بفتح أبواب القصر، وكان حرسه مسلحا بأحدث عتاد، وهو محصن بمدافع ضخمة ظهرت فوهاتها مصوبة على الجنود وأفراد الشعب الثائر! واستمر الجيش في ندائه لعبد الإله:

سلم نفسك ومعك الملك.

وسلموا آمر الحرس تحريرا وطلبوا من الملك وعبد الإله ونوري السعيد التسليم وعندما اطلع عبد الإله على الإنذار أمر الحرس بالضرب وعندها بدأ تبادل الرصاص.

ولما سمع الملك فيصل أزيز الرصاص لحق بخاله عبد الإله إلى الشرفة، ورأى الجند بمدافعهم ودباباتهم وخوذهم الفولاذية فأخذته الدهشة وقال لخاله سأرفع علما أبيض واستسلم قبل أن يضربونا؟ فرفض خاله عبد الإله وقال له: يا جبان، ودفعه إلى الوراء، وأمسك بمدفعه الرشاش الخاص وصار يطلقه على الجيش، والشعب والجيش يجيب بالمثل، وأما فيصل فرفع محرمته البيضاء محاولا الاستسلام، ولكن خاله كان

أسرع منه فعاجله بعدة رصاصات من مدفعه الرشاش سقط على أثرها الملك يتخبط بدمه. وبعد لحظات اندفعت هذه الجماهير إلى القصر، ودخله الشعب لأول مرة، ومضى يجوس ردهاته ويمشي في طرقاته ويتحسس الحيطان.

واستولى الشعب على جثة عبد الإله، وعبثا حاول الجيش تخليص الجثة، وجرها الشعب في الشوارع إلى دار وزارة الدفاع، ورفعوها على حامل من الخشب حيث أعدم عبد الإله في المكان نفسه عددا من ضباط الجيش الأحرار بعد فشل ثورة ١٩٤١، انتهت قصة قصر الرحاب بمقتل فيصل وعبد الإله وثلاث نساء أجنبيات و١٧ شخصا كانوا في خدمتهم.

وفي ظل هذه الثورة العارمة ظل الجيش مع الشعب في غليان: أين نوري السعيد؟ هل تمكن من الفرار؟ وأعلن الجيش عن مكافأة عشرة آلاف دينار لمن يضبطه.

اندفع الشعب إلى أي مكان وأخذت الوشايات تظهر فكنت ترى بين لحظة وأخرى (خائنا) مجندلا في الطريق، وهو المصير الذي وصل إليه نوري السعيد بعد أن تخفى في زي امرأة وعرفه الجمهور الثائر فمزق جثته إربا إربا.

ففي ١٤ تموز احتل الرائد بهجت سعيد قصر نوري السعيد، لكن هذا قد تمكن من الفرار في خلال الدقائق الأولى، عن طريق النهر إلى الضفة الثانية في أثناء تبادل النيران بين حرسه والقوات المهاجمة.

وفي اليوم التالي قبض على نوري السعيد في زي عجوز شمطاء وهو يرتعد من الرعب، وقد حاول استخدام مسدسه، لكن يده كانت ترتجف من شدة الخوف واختطفته الجماهير فأثخنته جراحا وداسته بالأقدام، ومع أن قوات الجيش قد دفنته في اليوم الأول إلا أن الجماهير الهائجة استخرجت جثته ثانية وسحبتها في الشوارع حتى تقطعت أوصالها.

هذه البدايات للثورة العراقية بما اتصفت به من دموية ومن دخول قاموس القتل (السحل) في الشوارع، هي التي أعطت هذا المفهوم اللاإنساني بعدا كبيرا، حيث تعرض الرجال الذين قاموا أو حاولوا القيام إبان حكم عبد الكريم قاسم بأي محاولة انقلابية مع عائلاتهم أو أقربائهم إلى (السحل) في شوارع المدن ومن ثم الشنق.

إن هذا المفهوم للخصومة السياسية هو الذي جسر عبد الكريم قاسم إلى أن يكون عهده عهد الدم والعنف والخوف حتى أن الناس فقدوا الرأي وخرسوا خوفا على قطع أجزاء من أجسادهم.

وفي تطور لاحق أصبح قاسم حين يريد أن يتخلص من أحد المسؤولين وحتى لايرمي الذنب على نفسه في ذلك يحرك جموعا من الرعاع تجوب الشوارع مطالبة بـ (سحل) المسؤول غير المرضي عنه، فكان هذا يذهب ضحية (المتظاهرين) ويزيد قاسم من رصيد نفسه أن الشعب هو الذي حكم هذا المسؤول بهذا المصير.

وابتكرت أداة ثانية في ذلك، كما كان الحال في عهد الثورة الفرنسية، فأنشئت محكمة الثورة التي أدارها ابن خالة قاسم العقيد (فاضل المهداوي) فكانت هذه المحكمة من أطرف المحاكم العربية حيث تعقد الجلسات ويمتد الحديث بين رئيسها المهداوي والمتهم إلى الأمور الشخصية والى النكات أو الغناء من قبل الحاضرين ثم يلفظ بالحكم فإذا هو الإعدام، وهكذا بقيت هذه المحكمة من أندر ما شهدته محكمة في الساحة العربية، إلى أن أزالها قاسم بعد أن أخذ مفعولها ينعكس عليه. حتى أن البعض قال أن قاسم سوف يجيئه الدور طالما أن ابن خالته لم يترك رأسا إلا وجلبه إلى المحكمة.

وبقي المتظاهرون هم الأداة في تحريك الحكم، فكان إذا لم يوافق قاسم على مسألة ما تعطى الأوامر بخروج المظاهرات مع التعليمات بأن ترفع شعارات التأييد أو الشجب

لموقف ما، وهكذا كان قاسم يتكلم باسم الشعب الذي كان عماده جموع المتظاهرين. ويذكر أنه حينما طلب جمال عبد الناصر لقاء عبد الكريم قاسم بعد تنحيته لعبد السلام عارف كان رد الأول غير المباشر إخراج مظاهرات في بغداد تهتف (ماكو زعيم إلا كريم.. جمهورية مو إقليم).

وإذا كانت هذه الشخصية وصلت إلى أن تحكم الخمس سنوات وبهذا البطش والحزم فإلى أي قوة سياسية أو قبلية كانت تستند في ذلك.

إذا عدنا إلى التقسيمات الطائفية في العراق نرى أن عدد الشيعة هم الأكثر عددا ولكنهم لم يحكموا سياسيا ولهذا فإن شيعية البؤس هذه، التي وجدت شكلا من التعبير السياسي المقتصر عليها تقريبا، في الشيوعية لمدة حقبة كاملة، قبل أن تنوب عنها جزئيا منظمات ذات أساس جماعي نوعي، هذه الشيعية لعبت دورا لا يستهان به في نظام اللواء عبد الكريم قاسم من ١٩٥٨-١٩٦٣ . كانت ردود الفعل الشيعية الأولى على ميلاد هذا النظام عدائية صراحة، فالـ (ضباط الأحرار) صناع الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، الذي نصبوه في مكانه، هم من الوحدويين العرب والموالين لعبد الناصر. كانوا ينادون بأعلى صوتهم بقصدهم في تحقيق وحدة العراق مع الجمهورية العربية المتحدة، التي ولدت قبل شهور بالاتحاد بين سورية ومصر. وكانت المرجعية الشيعية بالتعاون مع أكراد الموصل والسلمانية غير متحمسة لفكرة اتحاد العراق مع أي بلاد عربية أخرى في وسط كيان دولة واسعة تجسد انتصار الهوية العربية وجامعة العروبة. أما الشيعة ذات المحتد العربي، الأقل عداء من الشيعة غير العربية لموضوع جامعة العروبة بسبب تعلقها بها، فقد أظهرت مع ذلك أنها، على وجه العموم، أقل موالاة من السنة العرب، وكان سبب هذا التحفظ النسبي، في الإطار العراقي الضيق، هو أن الشيعة، بجميع أصولها العرقية المختلطة هذه المرة، واعية تمام الوعي للوزن

السياسي المحتمل الذي تمنحهم إياه أغلبيتهم العددية ويخشون أن يفقدوه في دولة أوسع ذات أغلبية سنية ساحقة.

وفي الوقت الذي بات فيه واضحا أن اللواء عبد الكريم قاسم قد فرض وجهات نظره الخاصة، ولم يكن ينوي بتاتا ضم العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة، فقد تحول أشرس المعارضين إلى موالين متحمسين له.

ولتحليل ذلك كانت هناك دوافع أخرى أيضا لهذا التعاطف .. ففي نظام عبد الكريم قاسم ، وهو زعيم قيل أنه شيعي عن طريق أمه وسني (كردي إيراني) من أبيه، أخذت الأقليات في جملتها، تأمل بتعديلات قانونية عميقة وعلى الأقل بتحسن بالنسبة للوضع القائم في ظل الهاشميين، وأراد قاسم تلبية هذه التوقعات، فجاءت المادة ١٢ من دستور ١٩٥٩ تكفل لجميع المواطنين الحرية الدينية وحرية المعتقد، في حين أن المادة ٩ ترى إبطال (أي تمييز ديني أو غيره) ؛ محددة أن (المواطنين متساوون أمام القانون في الحقوق والواجبات، دون أي تفريق في اللغة وفي الدين وفي الرأي) . وقد بدت هذه النصوص، كما وأن الوعد بأن أعمال القمع في آب ١٩٣٣ ضد الأشوريين وتشرين الأول ١٩٣٥ ضد اليزيديين وعام ١٩٣٦-١٩٣٧ ضد الشيعة في أدنى الفرات، وعام ١٩٣٠ -١٩٣٣ و١٩٤٥-١٩٤٧ ضد الأكراد لن تتكرر من جديد، وبأن معاملات العنف التي لحقت باليهود العراقيين سوف تكون الأخيرة، وبأن التميز الصادر ضدهم عام ١٩٥٠ سوف يلغى.

وقد أبطل بالفعل في ٢٩ كانون الثاني عام ١٩٦٠ قانون آذار ١٩٥٠ الذي كان يقرر سحب الجنسية العراقية من اليهود الذين يغادرون البلاد ويصادر جميع ممتلكاتهم. واستقبل جميع زعماء طوائف الأقليات الدينيين ولا سيما من المسيحيين، هذه الأحكام

ببالغ الرضى، إلا أنهم راحوا يتحفظون أكثر فأكثر تجاه مكانة الدرجة الأولى التي يوليها النظام للـ (شيوعية الملحدة) .

وعمل جماعة من زعماء النجف الدينيين في كانون الأول ١٩٥٨ على توزيع نشرات تدعو المؤمنين إلى الحذر من الـ (الأفكار المستوردة)، إشارة واضحة إلى خطر الإلحاد الشيوعي. بيد أن رعيتهم لم تتبعهم بالإجماع.. في نيسان ١٩٥٩ تظاهر وفد شيعي من النجف، دون رؤساء دينيين، ناشرا راية يعلن فيها عن نفسه بأنه قسم من (أنصار السلم في مدينة إمام الحقيقة والسلام) – أي الإمام علي – دامجا هكذا صفة التنظيم الشيوعي الملحد والإخلاص للشيعة.

وإذا كانت الثورة لم تعدل حقيقة الوضع الإجمالي للطائفة الشيعية، إلا أنها بدلت التوازنات الداخلية، فالإصلاح الزراعي ساهم في تقويض تأثير شيخ القبيلة الاجتماعي والسياسي. أما وقد بات الفلاحون يملكون منذئذ قطعة أرض قابلة للزراعة، لأشخاصهم، وليسوا خاضعين لسلطة الشيخ، فإنه صار في وسعهم أن يتحرروا من وصايته. ومضت تنجم عن ذلك قطيعة فعلية بعلاقات الـ (إقطاع) القبلي القائم، مسلمة الفلاحين لأنفسهم، بل أن هؤلاء الفلاحين أفلتوا بذلك إلى حد ما من مراقبة الزعماء الدينيين الذين، بإقامتهم على وجه العموم في المدن المقدسة، لا يباشرون معهم كشيوخ القبائل الاتصال المباشر نفسه. وقد أفاد هذا التراخي في الصلات العشائرية القديمة، لمدة من الزمن، التشكيلات السياسية المرتبطة بالحكومة: الحزب الوطني الديمقراطي، وبخاصة الحزب الشيوعي، الذين شأن سياسي الإخاء فيما بين الحربين رأوا في الجموع القبائلية الشيعية الحشد الذي يكون في وسع المناورة تحريكه لتضخيم مظاهرات الشوارع التي ينسقونها، وعلى هذا النحو يغطون عجزهم السياسي الرئيسي ألا وهو ضعفهم العددي.

وقد كان فلاحو الجنوب الشيعة يرتضون، علـى الوجـه الأفضـل، هـذا التسخير، لاسيما وأن بؤسهم أشد من بؤس فلاحي القبائل السنية، وأن قليلا من الصلات تربط القسم غير العربي منهم بقومية الجامعة العربية. ففي الوسط القبائلي، مفكك الأوصال، وجد التغلل الشيوعي قبولا من خلال التباس اللغة، الذي رعاه بعناية مناضلو الحـزب الشيوعي أنفسهم، وكانوا غالبا مـن أصـل شيعي مـن المدن: فقد قـاد التقارب بين الكلمتين العربيتين : شيعي وشيوعي الفلاحين الأميين إلى الافتراض بأن الشيوعية مـا هي في الواقع سوى نسخة للشيعة. وعندما أزيل الالتباس بعنايـة بعض المجتـهدين، المستنفرين الذين قدموا على عجل، كان رد فعل الفلاحين الشيعة عنيفـا: فقد سحل مناضلون شيوعيون في عديد من المناطق وفقد بعضـهم الحيـاة، كضحايـا ضد الإلحـاد الـذي كـانوا يجسدونه في أعـين هـؤلاء الفلاحين. فالتطـابق بين شـيعة الفلاحـين وشيوعيتهم لم يكن كما يبدو إلا سطحيا .

وحين تفتت قاعدة نظام عبد الكريم قاسم ، فإنه عمل بنفسه على أن يخـرج مـن الظل جزء مـن تلـك الحشـود الفلاحيـة، مستقدما في شـاحنات كاملـة، إلى ضواحـي العاصمـة، عناصر من قبائل (معدن) في الجنوب، من الشـيعة ومـن أرومـة غـير عربيـة منتظرين إشارة منه إذا هلع برجوازيي بغداد بذلك.

ولكن الأحداث التي عصفت بحكم عبد الكريم قاسم غيرت الخريطة مـرة أخـرى، وتباعدت التيارات التي وضعت على رقعة الشطرنج.

ومن تحصيل الحاصل القول أن بدايات حكم عبـد الكريم قاسم، بقدر مـا لاقت التشجيع والمساندة، لا لشخصه، بل لموضوع التخلص من نظام سابق، بقدر مـا كـره الشعب استمرارية حكمه وإبعاده في قتل وسحل من رافقوه في ثورته، بحيث بدا الأمر كأن سيناريو الثورة الفرنسية يعاد عرضه من أول وجديد. ولسخرية القدر أن يكون يوم

١٤ تموز هو عيد الثورة في العراق (١٩٥٨) وهو يوم النصر في فرنسا، بالمقارنة والمفارقة في ظروف أحداث الثورتين.

وبين هذا وذاك أدين حكم قاسم بالديكتاتورية والبطش والإرهاب، مع إغفال ما للرجل من خصال أخرى أو أعمال، فقد ذهب إلى ربه نظيف اليد، وأجريت على هيكلية العراق الكثير من الإصلاحات مثل تأميم النفط وقانون الإصلاح الزراعي وغير ذلك.

* * *

قلة هي الدراسات التي تناولت عهد عبد الكريم قاسم، دون أن تضع شخصيته في خانة الديكتاتور المستبد الذي علم الشعب العراقي الصراع الدموي في سلوك طريق السلطة. وليس باستطاعتنا أن نتفحص الحالة القائمة بصورة راسخة أو الثابتة على نحو محدد. مع ذلك، فإن النمط الإجمالي للمعطيات يدعم النهج المقترح للأنماط ويمتنع بالتأكيد عن تأييد الفكرة المناقضة والأكثر انتشارا وهي أن جميع الديكتاتوريين ذوي الأعمال الاعتدائية المفرطة هم أكثر عدوانية وأقل ضبطا للنفس من الديكتاتوريين الآخرين.

ويمكن أن نخرج بدلالة واحدة في ذلك وهي أن مفاهيم العدوان السائدة غير قابلة للتطبيق دائما على ديناميكية الشخص ذي العدوانية المفرطة. وعلى ما يبدو، فإن العدوان المفرط هو ظاهرة ينبغي أن تدرس بحد ذاتها وليس من خلال استقراء النتائج المستمدة من دراسة الأشكال الأخف للعدوان. إن هذا النمط من البحث يواجه، كما هو واضح من حالة عبد الكريم قاسم، الكثير من المصاعب المنهجية. وعلى الرغم من هذه

الصعوبات، فإن تحليلنا الراهن يدل على أننا إذا شئنا أن نفهم السلوك العدواني المفرط لقاسم، فلابد من التكيف مع المعطيات التي لدينا.

وحين يجري فحص اجرائي بعد الجرائم التي ارتكبها، تكون هناك بعض الدلالات التي تدل، بالرجوع إلى الوراء، على وجود بعض المؤشرات الدالة على احتمال القيام بالعنف.. إحداها هي انشغال الخيال بالعنف، كما هو حال صبي، ابن الحادية عشر، الذي طعن أخاه بالسكين حتى الموت وقد كان رساما كاريكاتوريا لصحيفة المدرسة، وبعد الحادث تذكر الناس فجأة رسما كاريكاتوريا له، كانت الشخصية الرئيسة فيه تأخذ درسا في المبارزة بالسيف وتطعن مدربها حتى الموت.

ومهما قيل في السيرة الذاتية لقاسم فإن انعكاس ما من الطفولة كان يلازمه حين وصل إلى السلطة. فتهجمات الوالدين على الطفل تؤدي إلى المزيد من السلوك العدواني وهي أن هؤلاء الوالدين الذين غالباً ما يهددون الطفل ويلوحون له بأسوأ العواقب إن هو عصى يكون الاحتمال معهم أكبر في تنشئة أولاد عدوانيين أكثر لو كانوا من النوع الذي نادراً ما يهدد.

إن الوالدين الذين يكرهون بصورة عامة أبنائهم ويرفضونهم، يكون الاحتمال معهم اكبر بكثير في أن ينشئوا صبية عدوانيين. وعلى الأغلب، تكون هذه المواقف والأفعال كلها هجمات مباشرة على حس الطفل بالأمان، كما يغلب عليها كلها أن تحط من تقدير الصبي لنفسه كشخص ذي قيمة وأهمية. وهي كلها تعني بمضمونها أن العالم بيئة خطيرة ومعادية. وقد يبدو معقولاً أن نفترض أن هذه التأثيرات تقوم بدور المستفز للميول العدوانية ذات الجذور العميقة في نفسه، وهو لايشعر بالإحباط الشديد نتيجة هذه الهجمات وحسب، بل إنه يتعلم ضمناً أن العدوان هو (طريق العالم)، وإذا ما نظر المرء إلى هذه المتغيرات مجتمعة، يظهر له بوضوح النمط المتوقع: فالأطفال العدوانيون

يخرجون عادة من البيئة التي تتواجد فيها تأثيرات عدة(محرضة للدفاع) في حين ينشأ الأطفال التوكيديون وغير العدوانيين نموذجياً من البيئة (الإيجابية) بعض الشيء*.

وعلى هذا، فإن عقد ما من طفولة عبد الكريم قاسم ظهرت عليه بعد استلامه للسلطة، أظهرها الوساوس التي طغت عليه من أن الناس وحتى المقربين إليه يتآمرون عليه، وهذا ما جعله يكون عنيفا مع من كان له عونا في ثورة تموز حيث كانت شكوكه ووساوسه تلاحقه.

ومرض عبد الكريم قاسم يتجلى تماما في فصامه، وبالأحرى في (الأوهام الاضطهادية) التي لاحقته، فقد كان يشعر بأنه مراقب وأن مؤامرات خطيرة تحاك ضده، وأن الدول تتآمر عليه، والجواسيس يلاحقونه، وأن الرفاق يراقبونه من خلال الجدران وأنه سيجري إلقاء القبض عليه، أو أن الأعداء يريدون قتله أو سجنه أوسحله بالاتفاق مع زوجته - مثلا - التي تدس له السم في الطعام تدريجيا، وتكثر هذه الأوهام في فصام البارانويا ولهذا دعيت أيضا بأوهام البارانويا (الزور)، ويمكن تأكيد ذلك من ارتياحه لمقولة أنه (الزعيم الأوحد)، فهذا اللقب دون الألقاب الأخرى التي سايرته تؤكد أنه يخشى من الغير بعين الريبة والشك.

ومن أوهام الاضطهاد التي عاناها قاسم (أفكار التلميح والإشارة) حيث كان يفسر كل حركة تجري حوله بأنها تعنيه وتدور حوله. فإذا رأى شخصين يتحدثان مع بعضهما البعض تصور أنهما يتحدثان عنه بالسوء، وإذا مر برجل وهو يتنحنح قال أنه يلمح إلى سوء أخلاقه، وإذا ما رفع شخص يده ليحك بها رأسه أو أذنه كان تأويله بأن ذلك إشارة إلى كيت وكيت من المسائل.

المراجع:

١. د. فخري الدباغ : أصول الطب النفساني دار الطليعة – بيروت ١٩٨٣.

٢. ثورة العراق ١٤ تموز بدون ذكر المؤلف مكتبة النوري – دمشق ١٩٥٨.

٣. جمهورية العراق الفتية وأسرار الانقلاب العراقي بدون ذكر المؤلف مكتبة النوري – دمشق ١٩٥٨.

٤. مصطفى طلاس: مرآة حياتي العقد الثاني ١٩٥٨ – ١٩٦٨ دار طلاس للنشر – دمشق ١٩٩٥.

٥. لورانت شابري،آني شابري : سياسة وأقليات في الشرق الأدنى : الأسباب المؤدية للانفجار ترجمة ذوقان قرقوط مكتبة مدبولي – القاهرة ١٩٩١.

٦. ابراهيم العريس: هكذا كانت نهاية عبد الكريم قاسم صحيفة الحياة –لندن ١٩٩٦/٢/٨.

7- Jones , J : Prejudice and Racism, Addison - Wesley Publishing Co, London 1972 .

8- Chabry , Laurent (Kassem) in G . Fisher (dir) Hommes D`Asie et Leur Politique ,Faculte` de droit . Paris V / Etobec . Bruylant , Bruxelles , 1980 .

9- Lindgren , H , C : An Introduction to Social Psychology . John Wiley & Son , New york 1973.

فارس الخوري

ترك فارس الخوري دويا في الشرق، ودويا في الغرب، ودويا في العالم الجديد، لم يتركه سياسي سوري في العهد الحديث بالنسبة للمناصب التي استلمها. وقد يداخل الإنسان العجب فيتساءل: كيف تم له ذلك وقد درج من بيت بسيط في مزرعة متواضعة، تحتضنه طائفة مذهبية (البروتستانت) عددها قليل؟

على أن الإجابة على هذا السؤال هي في أطواء السؤال نفسه!

فالبيت البسيط الذي درج منه قد أمده بالقوة على تبسيط المرئيات وبلوغ أكنافها من طرائق غير ملتوية، والطائفة القليلة العدد قد باعدت بينه وبين العجب والاعتداد بالعشيرة دون مواهب الذات ومزايا النفس. فقد كان في العمل أوصاف النبل والاتزان وحصافة الرأي وحكمة التصرف. أما الهنات والهينات فلا تحصى عليه، لعلية صفات الخير فيه، ولأن الإخلاص مستقر في متنه وحواشيه. وبذلك تمكن أن يحمل الناس على التسليم بنبوغه وسعة أفقه، وسلامة طويته.

كان فارس الخوري منذ صغره علماً بين الرفاق، أصغرهم سناً، وأصفاهم ذهناً، وأوفرهم جهداً، وأجملهم نفساً، وأرهفهم حساً، وأعلاهم كعباً، وأطولهم باعاً، وأثبتهم وداً، وأوفرهم وعداً.

إنه قاموس عام لكل مطلب وفن.

ولد جبور، جد فارس عام ١٨٠٠ وعاش القرن التاسع عشر كله وتوفي في عام ١٩٠١ فيكون قد أدرك ثلاثة قرون. وكان مولعاً بالمطالعـة، فمالت نفسه إلى نزعة في الدين تخالف ما كان عليه أهل بيئته. فخرج على تقاليد الكنيسة الأرثوذكسـية وتمرد على الاكليروس. ثم بلغه أن في بيروت جماعة من الإفرنج يدعون إلى مذهب جديد، فذهب إليهم حيث انضم إلى هذه الجماعة.

ويعتبر جد فارس الإنجيلي الأول في سورية ولبنان.

وكانت ولادة فارس في تشرين الثاني ١٨٧٧ في الكفير–لبنان (حيث كانت سورية ولبنان بلداً واحداً) وكان المرسلون الأمريكيون قد أنشأوا مدرسة ابتدائية في قريته حيث أصبح أحد تلاميذها. وهناك حصّل القراءة والكتابة وبعض الحساب. وبعدها ذهب إلى صيدا حيث أنهى تعليمه بها صيف عام ١٨٩٠ ودخل بعدها (الكلية الإنجيلية السورية) في بيروت، فظهر ميله إلى الأدب العربي ونظم الشعر.

وبعد عام لم يعد إلى الجامعة المذكورة حيث مارس التعليم في (زحلة–لبنان) وعاد إليها في خريف عام ١٨٩٦ وأدى امتحاناً عن السنة الثالثة ودخل الصف الأخير وحاز على شهادة بكالوريوس في العلوم في نهاية السنة. وهذه الشهادة كانت ثقافية عامة وليس فيها اختصاص في أحد فروع العلوم والأدب، كما هي الحال اليوم.

ودرس في الجامعة الأمريكية لمدة سنتين ثم انضم إلى مجلة المقتطف حيث تركها بعد فترة قصيرة وعاد إلى دمشق حيث قرر الإقامة بها، بعد أن دعاه البطريرك ملاتيوس دوماني لإدارة المدارس الأرثوذكسية، كما عمل بالإضافة إلى ذلك في قنصلية إنكلترا.

وفي ذلك أخذت شخصية فارس الخوري تتضح، حيث كانت الألسن تلهج بالثناء عليه، وقد أجمع الناس على حبه واحترامه وهو لم يبلغ الثلاثين من العمر.

ودرس في ذلك الوقت اللغة الفرنسية والتركية وأجاد بهما، وأصبح في عام ١٩٠٨ عضواً في جمعية الاتحاد والترقي بعد أن افتتحت فرعاً لها في دمشق.

وطالع كتب الحقوق بدون أستاذ وكاد أن يحصل على شهادة بها ولكن اعتقاله في عام ١٩١٦ حال دون ذلك. وقد اشترك فارس الخوري في تأسيس محفل ماسوني سمي محفل (نور دمشق) ، وقد ارتبط بالمحفل الأسكتلندي ولم يلبث أن أصبح رئيساً له.

ودخل الخوري ميدان السياسة والحياة العامة واستقال من وظيفته في قنصلية إنكلترا، فانتخب عام ١٩١٤ عضواً في مجلس المبعوثان وكان قد بلغ الأربعين من العمر. واشتهر عنه أنه كان نائباً جريئاً يستجوب ويعارض ويناقش بحجج قوية، مستثيراً جميع قواه العقلية والنفسية لأجل الدفاع عن نفسه وعن رفاقه، وكان ينجح في التأثير على سامعيه بقوة حجته وتأثير شخصيته.

وعاد فارس من استنبول في ١٤ أيلول ١٩١٨ وكانت قوات الحلفاء تقترب من ضواحي دمشق. وفي ٣٠ من الشهر نفسه غادرت القوات التركية المدينة وكان على رأسها جمال باشا. واشترك فارس برفع العلم العربي على دار الحكومة بدمشق. وفي نفس الفترة ساهم في تأسيس المجمع العلمي العربي في دمشق عام ١٩١٩، وكذلك دخل الوزارة لأول مرة حيث خرج منها بعد عام.

كانت خدماته الوطنية جليلة ومفيدة حيث كان أستاذاً في معهد الحقوق منذ عام ١٩١٩ وبقي في كرسيه حتى عام ١٩٤٠ مع انقطاع قليل. ووضع كتباً في هذا الحقل وفي العلوم المالية بقيت تدرّس لأكثر من أربعين سنة دون أن يكون مختصاً بها بموجب شهادة رسمية. وأصبح نقيباً للمحامين منذ عام ١٩٢٠-١٩٢٦، وأسهم في تأسيس حزب الشعب .

وفي عام ١٩٣٦ جرت انتخابات نيابية وكان المجلس الذي انتخب، أول مجلس

يجتمع في عهد الاستقلال الجديد بعد نضال دام ست عشرة سنة ضد الانتداب . وتم انتخاب فارس الخوري رئيساً له ، فكان يدافع عن الحياة البرلمانية الدستورية في كل مناسبة وهو ما أثار حفيظة الفرنسيين.

كذلك الأمر في عام ١٩٤٣ حيث عين فارس رئيساً لمجلس النواب بعد أن وصل إلى النيابة بنسب أصوات عالية جداً ، وقد انتخب القوتلي رئيساً للجمهورية. وفي عام ١٩٤٤ شكّل وزارته الأولى، وكان قد تجاوز الثانية والستين من عمره، وفي تعاقب قصير كان قد أعاد تشكيل الوزارة ثلاث مرات، حيث دامت حكوماته على نفس الرقم تقريباً .

وأصبح فارس الخوري منذ تأسيس منظمة الأم المتحدة في عام ١٩٤٥ يجمع إلى رئاسة المجلس النيابي في سورية رئاسة الوفد السوري في الأمم المتحدة، حيث عرض قضية جلاء الفرنسيين عن بلاده. وفي عام ١٩٤٦ انتخب عضواً في مجلس الأمن حيث كان في الرابعة والسبعين من عمره وبقي سنتين كاملتين (١٩٤٧-١٩٤٨) وأصبح رئيساً له في أب ١٩٤٧.

وعاد إلى بلاده بعد انتهاء عضوية سورية في مجلس الأمن فاستقبل استقبالاً رسمياً وشعبياً كبيراً نظراً لما أحرزه من انتصارات لبلاده وللأقطار العربية في هيئات الأمم المتحدة.

وكان فارس قد انتخب رئيساً للمجلس النيابي الجديد في ٢٧ أيلول عام ١٩٤٧ عندما كان يمثل سورية في مجلس الأمن. ولم تمض ثلاثة أيام على وصوله إلى دمشق وكان يقوم بواجبه في رئاسة المجلس، وقد كان ظهوره في جلسة ١٩٤٩/١/١٣ وترؤسه جلسة المساء ، مفاجأة ذهل لها النواب والمتفرجون واستقبلوه بسرور وحسن اهتمام.

وحين حل هذا المجلس في أول نيسان عام ١٩٤٩ ثابر على عمله في الحقل الدولي

وترأس الوفود السورية إلى هيئة الأمم، وتابع فيها نضاله في سبيل الحق والعدالة.

وفي عام ١٩٥٤ طُلب منــه تشكيل حكومـة سورية حيـث لم تسـتمر سـوى أشـهر معدودة، وكان ذلك آخر المناصب التي شغلها هذا السياسي المخضرم الذي عـد واحـداً من قدماء السياسيين الوطنيين السوريين الذين وقفوا حياتهم علـى الدفـاع عـن سـورية ضد الأتراك أولاً ثـم ضـد الفرنسيين حتـى استقلال البلاد، واشـتهر عنـه الاعتـدال والحكمة السياسية، ولم يتفق معه اليسار في آرائه السياسية. وكان له تأييد من الشارع الإسلامي أكثر من المسيحي، لأن طائفته من أقل الطوائف المسيحية عدداً بعد أن كـان في الأصل أرثوذكسياً، حيث بقي شقيقه على هذه الطائفة.

ويُعتبر فارس الخوري أول وآخر رئيس وزراء غير مسلم يتسلم رئاسـة وزراء سورية إلى نهاية القرن العشرين من أبناء الوطن السوري، وهذه ظاهرة صحية تسجل في صالح شخصية هذا السياسي المخضرم.

وقد ورثه في العمل السياسي ابنه سهيل حيث أصبح نائباً ووزيراً، وأحيـت ذكـرى جدها حفيدته الأديبة كوليت الخوري التي أصبحت نائبة عن دمشق لعدة دورات.

ويسلم عباس محمود العقاد بعبقرية فارس الخوري البيانية ويقارنـها بعبقريـة لويـد جورج وسعد زغلول. وقد قال فيه علي ماهر باشا رجل الدولة المصـري: (لقـد اسـتحال هذا الرجل إلى كتلة دفاعية فلم يبق في جسمه أعضاء من عظم يكسوه لحماً وإنما أصبح كل عضو فيه مدار تفكير وبحث وعمل ونشاط).

ربما وعى فارس الخوري مكانة قواه العقلية حين حدثت له الحادثـة التاليـة وهـي على عهدة الراوي:

((نزل فارس إلى السوق ليشتري طربوشاً، وعزّ عليه أن يجد طربوشـاً يسع رأسـه، وأخـيراً وجـد طربوشـاً حسـب مطلوبـه. فسـأل البـائع: كـم ثمـن الطربـوش؟ فأجابـه

البائع : ريال مجيدي) ،وكان الطربوش يوم ذاك يباع بنصف هذا المبلغ. فأنكر عليه فارس ذلك وأعرض عنه قائلاً: (لا أشتريه)، فقال له البائع: (إذا وجدت عند غيري طربوشاً يسع رأسك فاشتره بربع ريال مجيدي)، ولكن فارس أجابه: (وأنت إذا وجدت في دمشق رأساً يملأ طربوشك فاقبض من صاحبه ريالين). وتضاحكا واتفقا أخيراً على الثمن)).

وقد عرف عنه أنه رجل العدالة والإنصاف وإعطاء كل ذي حق حقه، وهو الذي كانت صفاته الهامة اتزانه وهدوء روحه وكبر نفسه وإبائه والمحافظة على مبدئه وثقته بنفسه. كما اشتهر عنه طلاوة حديثه، وصدق روايته، ووافر إبداعه، وحضور نكتته، فلا يمل سامعه ولا يتأفف عشيره، حديثه خصب يروي غلة السامع.

توفي في دمشق علم ١٩٦٢ وكان تاريخ ميلاده كما أسلفنا، عام ١٨٧٧.

* * *

يبدو تأثير حادثة ما أو شخص ما على جيل لاحق قد يعتمد، على الأقل لبعض الوقت، على الصفة الثقافية السائدة في الجيل المتأثر أكثر من الصفة الجوهرية الملازمة للحادث الماضي أو الشخص الذي مضى. فالأفكار على سبيل المثال لا تكون جديدة إلا في النادر. فإذا كان لأشخاص ما أثر كبير، فإن ذلك يمكن أن يعزى لوضوحهم هم أنفسهم، أو لتقبل الناس لهم، غير أنه من الجائز أيضاً أن يعزى للدرجة الكبيرة من تقبلهم لدى الآخرين بسبب ظروف جديدة طرأت على أولئك الناس.

وعلماء النفس الذين لديهم دراية بالمنهج التاريخي، والمؤرخون الذين لهم دراية بمادئ علم النفس وتقنيته، يستطيعون عن طريق دراسة الشخصية من واقع صور الشخصيات التاريخية، أن يجعلوا مثل هذا العلم القائم على دراسة الشخصيات أكثر

رسوخاً، وأكثر دقة، وأكثر تنوعاً. وسيتوفر لدى علماء النفس المتزودين بالمعلومات التاريخية ميزة واضحة على زملائهم من علماء النفس الذين يمارسون مهنتهم دون ذلك التزود، بحكم أنه لما كان الأشخاص الذين يعالجونهم في عداد الأموات، فإنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا بما يخالف ما يتنبأ به لهم معالجوهم، وبالتالي يعاد النظر في تقسيمهم إلى طوائف مخالفة.

وتبدو شخصية فارس الخوري، في هذه المقدمة، قوية متينة، عرفت كيف تستثمر علمها في المجال السياسي، فكانت مدرسة، في حد ذاتها، هي المدرسة التكنوقراطية. فهذا السياسي، رغم ولوجه لحزب الشعب في فترة قصيرة، لم يكن حزبيا معروفا، أوكمنظر أيديولوجي. وقد ساعده علمه وثقافته وإتقانه الجيد لعدة لغات، إضافة إلى براعته في اللغة العربية، ولخطابته المفوهة، ولتماسك شخصيته، في الوصول إلى أعلى المراتب السياسية السورية، دونها رئاسة الجمهورية.

وعرفته المحافل الدولية من خلال هيئة الأمم المتحدة، وفي مرحلة مخاض بلدان العالم الثالث من الاستعمار فكان له الإسهام في إعلاء صوتها ونبل مطلبها في الاستقلال، في مرحلة كانت بها هذه البلدان تستنجد لمن يقف إلى جانبها لتنال حق العيش مستقلة.

وهكذا غدا هذا الفارس علما وطنيا، وعلما عالميا، لمع اسمه في الكثير من البلدان مما رفع من اسم بلده في المحافل الدولية، فهو أخذ وأعطى لبلده الكثير الكثير مما لايمكن أن ينسى اسمه في مضمار السياسة السورية.

وقد تساءلنا كثيرا ونحن نكتب ملخصا عن السيرة الذاتية للمترجم له فيما إذا كان سلوك الرجال كأفراد يثير اهتمامنا أكثر من سلوكهم كجماعات أو طبقات، وهذا التساؤل يجمع بين افتراضين: الأول أن سلوك الرجال كأفراد أمر متميز عن

سلوكهم كأعضاء في جماعات أو طبقـات، وأن المـؤرخ قـد يختـار، منطقيـا، أن يمعـن النظر في واحدة بدلا من الأخرى، والثاني أن دراسة سلوك الرجال كأفراد يتكـون مـن دراسة البواعث الواعية في إنجازاتهم.

ومع الذي ذكرته فإني أرى أن أعالج الموضـوع بـأكثر مـن الكلمـات الـتي ذكرتـها. ولعل النظر إلى الفرد كفرد أكثر أو أقل تضليلا من النظر إليه كعضو في جماعة من وضع خط يميز بين الاثنين وهو ما يمثل تضليلا. إن الفرد، بالتعريف، هو عضو في مجتمع، أو لربما في أكثر من مجتمع واحد.. سمه جماعة، طبقة، قبيلة، أمة، أو ما تشاء.

لقد كان البيولوجيون الأولون قانعين بتصنيف أنواع الطيور والحيوانات والأسماك في أقفاصهم وفي المرابي المائية وفي خزائن العرض، ولم يقصـدوا إلى دراسـة الكـائن الحـي بالنسبة لعلاقته بالبيئة. ولربما أن العلوم الاجتماعية اليـوم تتخلـص مـن تلـك المرحلـة البدائية.

وبعض الناس يميزون بين علم النفس كعلم للفرد وعلم الاجتماع كعلم للمجتمع، وقد أعطي اسم (Psychologism) لتلك النظرة التي تقول بأن جميع المشاكل الاجتماعية تخضع كلياً إلى تحليل سلوك الفرد، بيد أن عالم النفس الذي يفشل في دراسـة البيئـة الاجتماعية للفرد لن ينجح كثيراً.

وقد عنى الدكتور "ليفز" شيئاً كهذا عندما قال بأن (الكتّاب العظام تـبرز أهميتـهم من خلال تشجيعهم للوعي الإنساني). إن الرجل العظيم يمثـل علـى الـدوام، القـوى الموجودة، أو قوى يساعد في خلقها عن طريق تحدي السلطة الموجودة. بيـد أنـه لربمـا أن أعلى درجات الخلق قد تمنح لأولئك العظام علـى غـرار كروموبـل أو لينـين الذيـن ساعدوا على قولبة القوى التي حملتهم إلى العظمة، وليس مثل نابليون أو بسمارك ممن ساروا إلى العظمة على ظهر قوة موجـودة أصـلاً. ولا ينبغـي أن ننسـى أولئـك الرجـال

العظماء الذين وقفوا بعيدا متقدمين عصرهم بحيث أن الذين أدركوا عظمتهم لم يكونوا سوى من الأجيال اللاحقة فقط.

أما فارس الخوري فقد أدرك الناس عظمته منذ اللحظة الأولى، فكان النجاح تلو النجاح له حافزا في التقدم إلى الأمام وهو ما أعطاه دافعا مستمرا في قولبة شخصيته بالشكل الذي وصفناه به.

إن ما يبدو لي بأنه جوهري هو أن نجد في الرجل العظيم فردا بارزا أو الذي هو ناتجا للعملية التاريخية ومساعدا لها في نفس الوقت، وهو في ذلك ممثل وخالق القوى الاجتماعية التي تغير شكل العالم وأفكار الناس.

وعالم النفس بحاجة إلى النفاذ إلى شكل السلوك الإنساني بالنسبة لشخصية الخوري التي لعبت فيها الإرادة دورا فاعلا للتيقن من السبب الذي حفزها على التصرف حسبما فعلت.فقد وضعت في مواجهة العالم الخارجي وكانت تتصارع معه وكأنها تتصارع مع شيء حرون ومعاد بالقوة.. حرون لأنه يعسر على الفهم، ومعاد بالقوة بسبب صعوبة السيطرة عليه.

وهنالك على الأقل ثلاث طرق يقرر فيها الحاضر كيف لنا أن نفسر بها شخصية فارس الخوري..

أولاً: ما هو مأخوذ من الميل الطبيعي لدى الإنسان لتفهم مسلك هذا السياسي الذي نكتب عنه، ومن هنا كانت شهادة الآخرين كما رواها المؤرخون في ضوء النماذج السلوكية الخاصة به. وهذه تؤدي إلى قياسات سيكولوجية أو مقارنات بين الأساليب العقلية للمؤرخين وأساليب شخصية فارس الخوري التي درسوها.

ثانياً: ترجع إلى أن جوّهم الفكري الخاص بهم قد كان عاملاً فاصلاً في اختيارهم للتحدث عن شخصيته وأعماله.

ثالثاً: كانت لنا من تحليل الحوادث الجارية، عوضاً عن المختبر، فمن سير الحوادث التي رافقت حياة هذا الزعيم، وتطورات أيامه، نستخلص مقاييس تاريخية ينسب معها سير الحوادث والتطورات في الماضي.

وهكذا أصبح (ماضي) هذا الزعيم هو (الماضي الحي) وذكرى الإنسان الحي، وله معنى بالنسبة لنا، يؤكد ذلك التحليل النقدي الذي لا زال يقوم على دليل ما زال قائماً من العهد الماضي.

وكما قال كولينوود: إن حوادث التاريخ لاتمر في استعراض وتتابع أمام المؤرخ، فهي قد انتهى حدوثها قبل أن يبدأ في التفكير بها، وأن عليه أن يعيد خلقها من جديد في مخيلته لتلعب دورها أمامه كما لعب ذلك الدور رجال ساهموا فيها بالطريقة التي يريد هو أن يراهم عليها.

وبعد .. فإن شخصية فارس الخوري هي الشخصية السورية المميزة بالذكاء، التي دافعت عن نفسها من خلال علمها وثقافتها، فكانت أن نالت حظوتها في المجالات التي اقتحمتها وأعطت بها تميزاً واضحاً لا زالت الأجيال تذكره، وتذكر هذا (السياسي السوري المحنك) الذي أنشأ مدرسة في فن السياسة، دون أن يوصل هذا العلم إلى مسار قنوات الأحزاب الأيدولوجية.

وتبدو" الأهمية الموضوعية " لعمل غير معروف أو لفترة تاريخية منسية أمر غير معروف في حد ذاته. فالأهمية التاريخية ليس لها وجود اللهم إلا كشيء مجرد يستطيع أن يقدره المؤرخ بصورة نظرية في حال شخصيات وحوادث دونت تواريخها ليس إلا . وبالاختصار، فالتأثير لا وجود له بالنسبة إلى المؤرخ، إلا إذا اكتشف سجلاً به، أو باسم شخص أو شيء له تأثيره. ويمكننا أن نذكر العديد من الأمثلة توضح هذا القول، والتي تُعتبر اليوم تطورات هامة، بينما كانت ذات يوم ضائعة بالنسبة إلى

التاريخ. ومن هنا لم يكن لها "أهمية موضوعية" يمكن للمؤرخ حتى أن يخمنها إلى أن بلغت أخيرا إلى علمه. وإن التطورات المهملة حاليا، يمكن أن تصبح بالتالي ذات أهمية موضوعية أكثر مما يستطيع المؤرخ الحالي أن يقدر.

إن التأثير الذي تركه فارس الخوري على استمرارية نهج السياسة السورية الذي اخطلته لايقاس بذكائه وعبقريته. وهنا تبدو لنا المقارنة.. بين استثمار عبقرية الفرد وشيوعها أو انحسارها أو تلاشيها، وكل ما نقوله لا يؤثر البتة على تماسك شخصيته بالكامل، ولكن على تقييم أعماله بعد مضي بعض الوقت، ومدى استمراريتها. فربما كانت أفعاله في حينها أهم إنجاز لفرد كان تأثيرها كبيرا في المجتمع.. هذا على الأقل في الميدان السياسي .

دعونا نضرب أمثلة على ذلك ..

إذا عدنا إلى التاريخ نرى أن تأثير حمورابي الفعلي على النظم القانونية أقل، لأن المؤرخين قبل رولنسون لم يقرأوا لائحة قوانينه؟ وهل كان أثر أخناتون على الفكر الديني في العصور التي تلته غير موجود، إلا بعد أن حل شامبيليون رموز الكتابة الهيروغليفية؟ وهل تعاظم تأثير أرسطاليس كمعلق سياسي في القرون التي فقدت كتابه المسمى (دستور أثينا) لأننا عدنا وكشفناه في مطلع القرن العشرين ؟ ترى لو أن بعض المؤرخين القرطاجيين قد بقوا على قيد الحياة ونالوا حظا من العناية التي نالها المؤرخون الرومان ، أليس من الجائز أن نجد إشارات أكثر إلى قرطاجنة وأهلها في دوائر معارفنا اليوم، على الرغم من أن أثر قرطاجنة قد لا يكون أكثر مما هو عليه الآن؟.

إن تناول شخصية فارس الخوري بين مجموعة من السياسيين العرب والتركيز على البنى العقلية والثقافية في نمو شخصيته لايشبه الحديث عن عقل إنسان جعل مستودع

سمح له بتخزين أشياء، ذلك أن العالم المادي يمنـع مـن التخزيـن، أنـه حديـث عـن إمكانيات الإنسان وقابلياته واتجاهاته لعمل أشياء بعينها، إنها محاولة جريئة لجعـل العالم الإنساني خاضعاً للمنطق البسيط .

المراجع:

١. حنا خباز ، د . جورج حداد : فارس الخوري، حياته وعصره مطابع صادر ريحاني-بيروت ١٩٥٢ .

٢. د . عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦ مطابع ألف باء-الأديب دمشق ١٩٧٤ .

٣. كوليت خوري : أوراق فارس الخوري الطبعة الأولى دار طلاس-دمشق ١٩٨٩ .

٤. لويس جوتشلك : كيف نفهم التاريخ ترجمة د. عائدة سليمان العارف ود. أحمد مصطفى أبوحاكمة . دار الكاتب العربي-بيروت ١٩٦٦ .

5- Carr,E.H :What is history . Pelican Books ,London 1964 .

6- Leavis , F . R :the Great Tradition . Oxford University , London 1948 .

7- Kroeber , A . L : CONFIGURATIONS OF Growth . Berkeley , Calif 1956 .

كمال جنبلاط

يعتبر كمال جنبلاط (١٩١٧-١٩٧٧) أحد الزعماء السياسيين الكبار في لبنان، صحيح أنه كان رئيس الحزب الاشتراكي التقدمي، ولكنه كان رئيس كتلة أحزاب اليسار والوسط والعلمانية، وكان ثقله السياسي أكبر من ثقل ونفوذ حزبه، وكان صوته عالياً بين أبناء طائفته الدرزية.. إنه واحد من أهم الزعامات العربية في عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية، أو ما يعرف بعصر الاستقلال للدول العربية. ولئن كان كمال جنبلاط لم يتبوأ منصب رئيس دولة أو رئيس حكومة في وطنه لبنان، لأسباب تتصل بالتركيبة الطائفية للمعادلة السياسية اللبنانية منذ استقلال هذا البلد قبل حوالي خمسين عاما، فإن دوره وتأثيره على المستويين الفكري والسياسي في مسيرته -خصوصا خلال عقدي الستينات والسبعينات وحتى اغتياله في عام ١٩٧٧ - فاقا بكثير دور وتأثير شخصيات تولت رئاسة الدولة أو الحكومة في لبنان خلال الفترة نفسها، بل أن كمال جنبلاط كان أحد الزعامات اللبنانية القليلة التي تخطى تأثيرها حدود لبنان إلى بقية أنحاء الوطن العربي. وكانت أعماله وأفكاره تترسخ في الواقع الحي للشعب اللبناني وفي وجدان الأمة العربية بأسرها، يوما بعد يوم.. أفكار تتحول في ضمائر الأجيال إلى إرادات صاعدة النمو تمثل الوحدة بين الفكر والسلوك، وفي حياته ومماته ضرب مثلا فذا على (المثقف) الذي يفكر وفقا لسلوكه، ويسلك تبعا

لتفكيره دون انفصام أو ازدواج في الشخصية، هذا المرض النفسي الشهير عند المثقفين العرب المعروف عنهم.

وكان لدى جنبلاط عمق الثقافة وعراقة الديمقراطية، كان ديمقراطياً في ممارسته، وله مفهومه للتقدمية والتقدم، ويعتبر أن كل إنسان لايخضع لنظرية التطور في حياته وفكره ومنحاه محكوم عليه بالجمود والموت، وكان يؤمن بنظرية مهمة جداً هي التنوع من ضمن الوحدة. ولأنه مثقف كبير، لم ينعزل قط في برج من العاج، رغم يسر الحياة التي كان يمكن أن يعيشها، ورغم المعانات الروحية التي أخذ بها فتـهل من معين الفلسفات الصوفية، وتجرد في حياته الشخصية من زخارف الحياة المادية. ولكنه أبداً لم يعزل نفسه في صومعة عن ضجيج الواقع اليومي للشعب، بل كان إحدى نسمات هذا الضجيج الذي يتنفسه الناس في حياتهم.

أصبح نائباً في البرلمان اللبناني لعدة دورات، وكان حضوره لجلسة من جلساته يعني حضوراً استثنائياً، فهو لايمل ولايكل عن النقاش في كل الأمور المعروضة، وكذلك الأمر في مجلس الوزراء، وكان له نوابه ووزراؤه، ومع ذلك لم يكن راضياً عن وضع لبنان السياسي، فهو المعارض الدائم والمنتقد الحذق، ذلك أنه كان لجنبلاط مشروعه المتميز للبنان ومستقبله. وقد مر هذا المشروع بمراحل تطور وتنقيح حتى تبلور بشكله النهائي في السنوات السابقة لاندلاع الحرب الأهلية اللبنانية العام ١٩٧٥ وما رافقها من أحداث إقليمية وعربية. وجاء تمايز هذا المشروع ومعالمه من جوانب عدة من أبرزها:

أولاً: لم يكن جنبلاط في حاجة إلى صياغة مشروع وطني وقومي واجتماعي لإنقاذ لبنان ومتابعة هذا المشروع والسعي بكل السبل والتضحية بالكثير من أجل تحقيقه، ذلك أن كمال جنبلاط كان أحد أبرز قادة الطائفة الدرزية ذات التقاليد العربية، لم

يعتمد مطلقاً المعادلة الطائفية التي تحكم لبنان، بل كان كبار القادة التاريخيين في حياة الإنسانية متجاوزاً الاعتبارات الطائفية الطبقية، منتمياً في عمق الأعماق إلى (الوطن) و(الأمة). وفي الوطن كان ولاؤه الأكبر لأعرض قطاعات المجتمع اللبناني من الجماهير المحرومة، وبالتالي لمصالحها المشروعة في الديمقراطية والعلمنة والعدل الاجتماعي. وفي (الأمة) كان ولاؤه الأكبر لأكثر الاتجاهات أصالة ومعاصرة، فلم يدخل طرفاً في معادلة الأنظمة العربية بل كان شغله الشاغل هو الارتباط بالقوى السياسية الاجتماعية المناضلة في الوطن العربي.

ومع هذا كله ووفقاً لانتمائه لطائفته ولأسرته العريقة كان يمكنه الاكتفاء بنصيب في السلطة من دون إنهاك نفسه في معارك وتعريضها لمخاطر، كان من ضمنها واقعة اغتياله في حد ذاتها، في سبيل هدف عام للبنان الوطن لجميع الطوائف والجماعات التي تعيش فيه.

ثانيا : طرح صفقة متكاملة –على الأقل في المستوى النظري العام– تضمنت بناء نظام ديمقراطي لا طائفي قائم على أساس مفهوم المواطنة بمعناه الحديث وعلى مبدأ المساواة أمام القانون بين مختلف المواطنين اللبنانيين أيا كانت طائفتهم أو انتمائهم المذهبي أو غير ذلك من ولاءات. ودخل في إطار هذا الهدف ربط هذه الديمقراطية بالعلمانية من منطلق أن بلدا في وضعية لبنان بطوائفه الكثيرة والمنقسمة أصلا في داخل كل منها لا يحتمل تكريس الحالة الطائفية وتقنينها في إطار المؤسسة، كما كان الشأن منذ استقلال لبنان، ولكن يجب أن يسعى إلى إيجاد صيغة تفاعل وتعاون وليس مجرد تعايش سلبي، فيما بين هذه الفئات والطوائف حتى تتحول التعددية الطائفية إلى موطن قوة وليس نقطة ضعف تفتح الباب أمام تدخلات أطراف خارجية، إقليمية ودولية، طالما استغلت معادلة التوازن الطائفي الهشة في لبنان بغرض توظيف هذه

الطائفة أو تلك لتنفيذ أهداف أو خدمة مصالح خاصة بهذا الطرف الإقليمي والدولي أوذاك، وبما يتناقض مع المصلحة الوطنية للشعب اللبناني ذاته.

ولم يعن ربط جنبلاط للديمقراطية بالعلمانية إلغاء لدور الدين كلية في المجتمع أوتدخلا في شؤون أتباع كل دين أو مذهب بقدر ما كان رغبة في بناء لبنان وطنا حقيقيا بكل ما يجسده هذا المفهوم من معان وليس مجرد مصادفة تاريخية ومكانية وظرفية جمعت طوائف مختلفة من البشر واضطرتهم حسابات قوى خارجية للعيش جنبا إلى جنب.

ونرى البعد الإجتماعي لفلسفة جنبلاط في إطلاق اسم (الاشتراكي التقدمي) على حزبه، وهذا لم يكن من قبيل إطلاق الأسماء فارغة المضمون - وهي ظاهرة منتشرة ومستشرية في عالمنا العربي المعاصر - بل نجح جنبلاط في تطوير مضمون اجتماعي لفكر حزبه مع ربط ذلك المضمون بالنضال من أجل ديمقراطية حقيقية وغير تمييزية من جهة، وإدماج حركته في إطار التحرر العربي.

ونستطيع أن نقول أن المكون الاجتماعي المتقدم لفكر جنبلاط تفاعل بشكل قوي مع المكون السياسي بحيث أكد كل منهما على صدقية الآخر وعمقه، فالبعد الاجتماعي هو الذي وحد قوى تنتمي إلى طوائف مختلفة ولكنها تتفق في مصالحها الاقتصادية والاجتماعية، وبالتالي في تطلعها لنظام سياسي لا طائفي يعبر عن تلك المصالح أو على أقل تقدير يمنحها الفرصة للتعبير عن هذه المصالح والدفاع بشأنها .

وفيما يخص المستوى الخارجي، فقد وقف جنبلاط ، وبالأخص منذ حرب ١٩٦٧ مع التوجه العربي المناقض لمخططات إسرائيل التوسعية في المنطقة وارتباط ذلك بالأطماع الغربية، خاصة الأمريكية فيها.

وعلى رغم اختلاف جنبلاط مع القيادة الناصرية(كثيرا ما اختلف مع قيادات

سياسية عربية) في بعض السياسات والمواقف فقد رأى مع ذلك أن عبد الناصر قد أوجد تيارا من الأفكار الغنية المفيدة وخصوصا عندما دعا وبشر بما سماه جنبلاط (الاشتراكية التعاونية) من دون أن يهمل تصيب الجانب الروحي قسطه.. على رغم ذلك فإنه دعم جبهتها فيما يخص القضية القومية.

كما أنه كان من أوائل من أيقن ونبه إلى وجود أطماع إسرائيلية مباشرة ومحددة في لبنان منذ ما بعد حرب ١٩٦٧، وبذلك ربط بين بعدي المصلحة الوطنية والأمن القومي متوجا ذلك بتأسيسه وزعامته للجبهة العربية المؤيدة للثورة الفلسطينية والتي جمعت قوى شعبية عربية غير رسمية في إطار تعبئة عامة لدعم نظام الشعب الفلسطيني. ورافق ذلك تحالف كمال جنبلاط كقائد للحركة الوطنية والتقدمية اللبنانية مع منظمة التحرير الفلسطينية، وهو تحالف، وإن كان أحد دوافعه الحسابات السياسية الداخلية لجنبلاط على مستوى لبنان، فإنه فرض على جنبلاط لاحقا تحديات وعداوات تكالبت عليه وربما لم تكن لتجتمع ضده لو لم يختر هذا الطريق.

ومن المهم القول أن الحرب الأهلية اللبنانية التي اندلعت العام ١٩٧٥ لم تكن خيار جنبلاط أو رهانه، بل كانت بالنسبة إليه (حربا مفروضة)، عبر فوضى المنظمات والأحزاب، وكانت وحدة البلاد وسلامة أراضيها مقدمة لكل شيء، وكان بالنسبة إليه رهانا أهم من الحكم أو من تحقيق إصلاحات هي ولاريب إصلاحات مؤقتة. وقد اجتهد في مواجهتها بشبكة من التحالفات المحلية والإقليمية محاولا تحويلها من حرب طائفية إلى ما يقرب من مواجهة ثورية شعبية مسلحة تتجاوز التحالفات فيها الخطوط الحمر بين الطوائف وتتقاطع عبرها لتصبح تحالفات على أساس برامج سياسية واقتصادية واجتماعية داخلية وخارجية. وقد تجسد ذلك في انضمام قوى سنية وشيعية ومسيحية وشخصيات تنتمي إلى هذه الطوائف، لكنها تندرج في إطار

أحزاب وطنية أو قومية أو ناصرية أو يسارية، إلى الحركة الوطنية اللبنانية بزعامة جنبلاط خلال الحرب وحتى مصرعه بعد سنتين على بدايتها.

وفيما عرضنا له يمثل الجانب السياسي من شخصية جنبلاط، شخصية السياسي (القاسي) الذي لا يلين أو يمل حتى يلحق الهزيمة بعدوه، لهذا كانت انتقادات بعضهم لجنبلاط محقة في بعض جزئياتها، سواء في شأن اختياره لتحالفاته محليا وإقليميا بل ودوليا أيضا، خلال تلك الفترة الحاسمة من تاريخ لبنان المعاصر، أو في ما يتصل بخليط الأوراق المحلية والإقليمية التي جمعها وراهن عليها، أو في المدى الذي ربما ذهب بعيدا فيه إلى محاولة إلحاق هزيمة ساحقة بالطرف الأخر كانت ستخل بما هو موجود لصالح مجهول لا ضمانات لمحتواه، وما وصلت إليه نتائج الحرب قد لاتعجب جنبلاط لوما زال حيا، فالطائفية السياسية في لبنان لم تنته، رغم المظاهر الأخرى التي تنمو نحو إلغائها.

ويمكن لنا أن نبلور شخصية جنبلاط السياسية في أنه كان الزعيم الشعبي والوحيد في العالم العربي خلال المرحلة التاريخية المعاصرة الذي لم يعتمد على (السلطة) في قيادة الشعب، كما كان في الوقت نفسه المفكر الخلاق الذي توصل بإبداعه السياسي —هو رجل الحوار الديمقراطي السلمي – إلى قيادة الحوار المسلح ضد (الحرب الوقائية) التي شنت ضده .

أما جانب الإنسان من شخصية جنبلاط، فقد كان نباتيا متأثرا بالبوذية ورياضة اليوغا، وكان يذهب إلى الهند في عطلاته لممارسة رياضة اليوغا، وكان يرى أن الإنسان السامي الذي ننحدر نحن منه هو مقلد كبير.. إنه عقب حقيقي للتمرد، وغالبا ما ينبغي للإنسان أن يذهب مع الحضارة المادية إلى غايتها لكي يدرك مختلف العواقب والتشويهات والعيوب البسيطة التي تنبع عنها. فقد تكون الشائبة كوضح النهار

ولكنك لا تراها للوهلة الأولى، فسلطان الوهم، يستولي عليك ويجنح بك، وعندما تبلغ هذه الشوائب والعيوب والتشويهات قصارى حدها، فإنه غالبا ما يكون الأوان قد فات، فيسود التسمم المعنوي وتبدأ دورة الفساد والتفكك بدون أن نستطيع ردا أوتوقيا. وعلينا أن لا ننسى أن الناس هم محبطون أزليون فرضاهم مؤقت، وانطباعهم أنهم لايرتوون إلا لفترة من الزمن ليعود سعيهم على بدئه.

وهكذا كان لدى جنبلاط روح دعابة مهمة جدا.. كان شخصا متعددا في وحدة كاملة، تجد لديه كل الاهتمامات ولكن في نسق وفي وحدة كاملة. كان فيلسوفا وأديبا وشاعرا، وضع بها بعض الكتب، إلا أن كتاب (هذه وصيتي) يعبر بشكل كبير عما كان يفكر به هذا الزعيم السياسي.

وكانت لديه روح دعابة راقية وشجاعة غير عادية، وكان رسمه وتصريحاته تملأ أعمدة الصحف والمجلات يوميا تقريبا، وكان شكله، بطوله الفارع ونحفه مثار مخيلة رسامي الكاريكاتير، فكان يصور كأحد فقراء لبنان أو بشكل هندي لأنه يحب البوذية، وفوق هذا وذاك كانت نكاته تحمل نكهة السياسي الذكي الذي يعرف كيف يوصل ما يريد من خلال إماءة أو تحريف في نكتة.

* * *

كمال جنبلاط شخصية نادرة على الساحة السياسية العربية، أودت به أفكاره ونظرياته وممارساته إلى أن يقتل اغتيالا وغدرا. ولو بقي حيا لكانت أفكاره قد تشبعت من حوادث الحاضر ولطهرتها من أدرانها.

إنه السياسي الفيلسوف الذي أغنى ممارساته السياسية برؤى فلسفية استمدها من أفكار طائفته الدينية ومما رآه في الهند من عبادات حاول أن يأخذ منها ويتكيف بها مع واقعه اللبناني العربي.

لهذا عد طراز فريد هذا السياسي وبدت قوته أقوى بكثير من الحجم المعطى له، كونه خارجا من طائفة لها نفوذها العددي المحدود، في ظل نظام يكرس التعددية الطائفية فكبر بفكره والمثل العليا السياسية التي حملها فكان زعيما أكبر من رؤساء الحكومات والدول، بل توج في سنواته الأخيرة زعيما لأحزاب حملت صفات سياسية وعلمانية متنوعة، فكان يختار منها من يضعه في سلم النيابة أو الوزارة.

وكانت جهات سياسية عربية كثيرة تحسب حسابه، فهو لا يهادن أحد بقد ما يقدر هو حساباته معها. ولهذا بدا دوره الريادي في قيادة الديمقراطية العربية بشكل مميز ومثير، وفي ذلك بقيت شخصية هذا الزعيم مثار أخذ ورد.

وقد يبدو أن جنبلاط كان قاسيا، بدل أن نقول أنه كان متعصبا، ذلك أن القساوة تفيد أحيانا في النجاح تبعا للأرضية التي تعمل بها، وهي معروفة ومشهورة، بصورة طبيعية أكثر من الحالات التي أدت فيها إلى الفشل، ذلك لأن حالات الفشل ظلت مغمورة نسبيا في زوايا التاريخ. وهكذا فإن التسرع في العرض يكون مضللا، أما إذا كنا على إطلاع على.هذا المصدر الممثل للخطأ، فلن يصعب علينا تجنبه.

كما أن أهم ما تتميز به شخصية هذا الزعيم كانت في أصالته، وهي تعني القدرة على إنتاج أفكار أصيلة. والفكرة الأصيلة هي التي تتميز بأنها (جديدة أو طريفة) حتى لحظة صدور الفكرة (الأصيلة) من شخص معين، فإن صدور إحدى الأفكار الأصيلة من أحد العلماء أو المفكرين بعد صدورها عن غيره بلحظات أو بأسابيع أو بشهور – دون أن تكون بينهما صلة – لايعني أنها ليست فكرة أصيلة.

وكانت له طلاقة فكرية، وتعني فيما تعنيه، إيراد عدد كبير من الأفكار، في أحد المواقف، ولا يكون الاهتمام هنا (بنوع) الاستجابة أو كيفها، بل بعدد الاستجابات، وتكون الاستجابة عبارة عن (أفكار) وليست مجرد كلمات مفردة أو استدعاء لفظي، وهكذا كان الزعيم يفاجئ زائريه بهذه الطريقة فيأسرهم.

كما كانت لجنبلاط شخصيته الإبداعية.. من ثقة بالنفس وشجاعة، تمكن من خلالها أن يجهر بما يراه، وكانت له القدرة على التمسك بالرأي، وهذا ما رتب عليه متاعب تراوحت بين الإهمال المتعمد وبين التهكم والاضطهاد، وذلك من قبل السلطات المحافظة الجامدة، سياسية كانت أو دينية أو غيرها.

ونرى في شخصية جنبلاط مدى الاستقلال بالرأي والشجاعة، وهذا ما ساعده على أن يرى الأشياء لحسابه، وعدم تأثره بالآراء والشائعات أو بتراث الماضي المتناقض.

وكان الدافع في كل ذلك ما حمله في طياته دائما من هجوم على الثبات والجمود، ولهذا تجلت قوته في تحمل ما كانت آراءه تثير من اضطراب في العقول القارة، حيث كان يعكر هذا الفكر صفو العادات ويعطل الأساليب القديمة للتفكير.

ورب قائل، كما ذهب عالم النفس كرتشمر، إن هذا التفكير الذي حمله جنبلاط يقرب من حالة المرض بالذهان الهذائي الذي يتجه إلى التعبير في مستوى خيالي، ولكننا نقول أن ديناميات سلوك العبقري التي تتجه محاولته إلى تغيير الحواجز التي تعترض سعيه لبلوغ هدفه هي غيرها للإنسان العادي الذكاء.

وفي تحليل سيرة هذا السياسي تبدو مكابرته على هذا العمل الذي خلق لديه طاقة حيوية كانت له التعويض في كل ما كان يعترض طريقه من صعوبات وعقبات، بل إن الفراغ العاطفي الذي عاشه بعد تركه لزوجته وعيشه وحيدا مع ابنه، أدى به إلى قساوة وتصميم على وضع مثله العليا السياسية موضع التنفيذ، لهذا كان جهاده

مستميتا في الدفاع عن أفكاره، وكان تعويضه النفسي في ذلك يتأتى من صوفيته وطريقة عيشه البسيط، وحب الناس له، داخل وخارج وطنه. وفي ذلك تعويض نفسي لكل نقص، فأفكاره تتجدد وحيويته كانت تفيض، وفي ذلك أوجد جنبلاط شخصية كانت ولا زالت تثير الاهتمام والمتابعة.

المراجع:

١. مجلة الوسط-لندن : العدد ١٦٨ ١٩٩٧/٣/١٧ .

٢. صحيفة الحياة-لندن : وليد عبد الناصر ١٩٩٧/٣/٢٠ .

٣. عبد الحليم محمود السيد : الابداع والشخصية - دراسة سيكولوجية دار المعارف بمصر ١٩٧١.

٤. مصطفى سويف : الأسس النفسية للإبداع الفني دار المعارف-القاهرة .

٥. كمال جنبلاط : هذه وصيتي نشر مؤسسة الوطن العربي-باريز ١٩٧٨

6- Anderson H (ed) Creativity and its Cultivation, HARBER, New York 1956.

المشير عبد الحكيم عامر

عبد الحكيم عامر هو أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة المصرية التي أطاحت بالملكية عام ١٩٥٢ وأتت بمحمد نجيب وجمال عبد الناصر إلى السلطة، وكان عامر صديق الأخير وقلما يسمع عن خلافيهما. تبوأ منصب القائد العام للجيش والقوات المسلحة كما كان مسؤولاً عن الإقليم الشمالي (سورية) آبان أواخر عهد الوحدة، وحين مني الجيش المصري بهزيمة ٥ يونيو – حزيران ١٩٦٧ تبين أن هذه الهزيمة التي أدت إلى احتلال سيناء وذبح عشرات المئات من المصريين الأبرياء، وضياع عشرات المليارات من الجنيهات من المال، سببها الأول المشير عامر، حيث أحاط به رفاق كان عملهم النفاق المستمر حوله، وتهيئة جو فاسد له. كما أن زواجه من ممثلة إغراء مصرية بالسر عظم كلام الناس من أنه لم يكن جدير بمنصبه.

وكانت هزيمة يونيو هي التي قصمت ظهر البعير بينه وبين عبد الناصر.. صحيح أن عامر حاول أكثر من مرة وفي أوقات مختلفة الانتحار، ولكن هذه الهزيمة عرته وجعلته يقدم على الانتحار، ولو لم يفعل ذلك لكان حوكم على الهزائم التي اقترنت بمنصبه، كما جرى الحال مع مساعديه من قواد الجيش.

وإذا كان الانتحار هو الذي أبقى من سيرة هذا العسكري السياسي قائمة، وقد أثير حول أمر الانتحار أكثر من سؤال كانت التحقيقات تؤكد حقيقته، فإن مثل هذا الأمر

هو من النادر على الساحة السياسية العربية، حيث لم نسمع بانتحار سياسي مرموق كالمشير.

كان عامر قبل الثورة مشهور بالطهارة والنقاوة والرومانسية والشجاعة، وهو من عائلة طيبة في صعيد مصر، ولا شك أن السلطة غير المعقولة وبدون أن يعارضه أحد غيّرت في شخصيته، ولكن طابع الصعيدي الشهم ظل موجوداً داخله.

كما كانت شخصية عبد الحكيم عامر قيادية مثل عبد الناصر، وما يقال أنه كان تابعاً لناصر هو غير صحيح، لكن من الواضح أن (كاريزما) عبد الناصر واتصاله بالجماهير كانت تتفوق جداً على ما لدى عبد الحكيم عامر ولم يكن أمام الأخير إلا قبول هذا الوضع، فقبله كصداقة وكنوع من أنواع المساواة.

وقد تعوّد عامر أن يأخذ كل رغباته، وكانت بالنسبة لعبد الناصر مجابة. وعندما تحرم شخصاً ما من رغباته يحاول أن يحطم نفسه ومن حوله، بل كانت هناك نوعاً من المعادلة الغريبة في علاقتهما للإبقاء على صداقتهما.

ويأتي تحليلنا النفسي ليكشف عن هذه الشخصية وكيف أمرضتها السلطة وجعلتها تقدم على الانتحار، وهي نموذج من نماذج شخصيات التحليل النفسي للسياسيين العرب.

* * *

ولد عبد الحكيم عامر في قرية اسطال عام ١٩٢٠ ودرس في مدارسها ، ونال الشهادة الثانوية والتحق بالكلية الحربية. وتبدأ قصة الصداقة المتينة بين ناصر وعامر عندما كانا ضابطين صغيرين برتبة الملازم عام ١٩٤٠ يخدمان معاً في إحدى كتائب المشاة المصرية التي كانت ترابط وقتئذ على أرض السودان، وكما يحدث في القصص

والحكايات التي يشتط الخيال بمؤلفيها أصبح الضابطان الصغيران في أقل من خمسة عشر عاما هما الرئيس جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر والمشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة المصرية واللذان يقفان وحدهما على قمة السلطة واللذين في يديهما معا زمام الحكم في مصر دون منازع.

وقد التفت حول كل منهما زمر من الحاشية والمثقفين والمنافقين ممن يطمعون أن يكونوا وحدهم مركز القوة وأصحاب النفوذ والسلطة ولذا بدأت الصداقة بعد بضع سنوات تفتر بين الصديقين الحميمين وبدأ جو المحبة والصفاء يتعكر وأخذت سماء العلاقة تتلبد بالسحب.

ومع كل العلاقات الوثيقة التي كانت تربط بين الصديقين الحبيبين حدث آخر ما كانوا يتوقعون حدوثه بينهما، إذ كيف يتخيل أحد أن ينشب صراع ضار على السلطة بين اثنين كان كل منهما يصرح بأن الآخر هو الشقيق الذي يكمله وأن الآخر أعز عنده من أسرته وأبنائه؟ ولكن الأمر المستغرب حدث والمستحيل قد تحقق.

وعلى الرغم من أن الصراع لم يكن مكشوفا وظاهرا للعيان بالنسبة للكثيرين بحكم الصداقة الوثيقة والصلات الشخصية والروابط العائلية بين الطرفين فإنه كان وخاصة بعد هزيمة حرب يونيو ١٩٦٧ واضطرار المشير عامر إلى التنحي عن السلطة من أخطر الصراعات التي شهدتها مصر في تاريخها حتى أطلق عليه البعض اسم صراع الديناصورات، فقد كان طرفا الصراع عملاقين شديدي القوة والبأس وكان عبد الناصر يستند في ذلك الصراع على سلطته المستمدة من الشرعية الدستورية وعلى مكانته وزعامته بين الشعب، في حين كان المشير عامر يستند على سلطته المستمدة من القوات المسلحة المرهوبة الجانب والتي كان معظم قادتها وضباطها يدينون له بالوفاء والمحبة.

ولقد كان جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر في علاقتهما الشخصية أكثر من أخوين شقيقين، وقد استمرت صداقتهما المتينة، برغم كل ما وقع بينهما من أزمات وخلافات أكثر من ٢٧ عاما. وطوال هذه السنوات ازدادت الروابط وتوثقت الصلات بينهما إلى الدرجة التي جعلتهما يكادان ألا يفترقان والى الحد الذي جعل كلا منهما يطلق اسم الآخر علي أحد أبنائه باسم صديقه جمال وأكثر من ذلك ارتبط الاثنان بصلة النسب، حيث تزوج الضابط الطيار حسين عبد الناصر شقيق جمال ابنة صديقه عبد الحكيم عامر.

واستمر الاثنان في عملهما بالجيش وكانت اجتماعاتهما شبه مستمرة منذ العام ١٩٤٥ في منزل أحدهما، إذ كانا يستعدان في تلك الفترة لدخول امتحان كلية أركان الحرب إلى أن تم ذلك عام ١٩٤٦، وكان من بين زملائهما في هذه الدفعة من ضباط الثورة فيما بعد زكريا محي الدين وثروت عكاشة وصلاح سالم. وكانت الدراسة في الكلية التي استمرت عامين فرصة للصديقين جمال وعبد الحكيم لتمضية معظم أوقاتهما معا سواء داخل الكلية أو خارجها.

وقبل نشوب حرب فلسطين تم للزميلين الصديقين إنهاء دراستهما من الكلية الحربية وتخرجا منها عام ١٩٤٨.

كان عامر في الفترة التي سبقت تعينه في مناصبه العليا والهامة ضابطا محترما، فهو الذي جند محمد نجيب نفسه (أول رئيس للجمهورية المصرية) وضمه إلى الضباط الأحرار. كما أنه في حرب سنة ١٩٤٨ قام مع غيره بمهاجمة مستعمرة (دير سنيد) الإسرائيلية، كما أنه أبدى ثناء ملحوظا في معركة (نينسايتم) وهي واحدة من أشرس المعارك التي خاضها الجيش المصري في حرب فلسطين. كما انه في ثورة الضباط

الأحرار كان دينامو الثورة المحرك لنشاطها، وهـو الـذي كتـب (بيـان الثـورة) والـذي أذاعه أنور السادات.

ومن يتابع الأمر يرى أنه كان من النادر تناقل الأخبار حول خلافات ما بين عبد الناصر والمشير، لقد كان الرئيس يكن صداقة قديمة لعامر، ولكن مـا أن وقعـت حـرب السويس والانفصال بين سورية ومصر حتى أخذت رقعة الخلافـات بـين عبـد النـاصر وعبد الحكيم عامر تزداد، فقد حاول الأخير أن يشدد قبضته على (الأجهزة)، حتـى أن جمال عبد الناصر صارح السادات أنه مستعد أن يترك رئاسـة الجمهوريـة ويذهـب إلى الاتحاد الاشتراكي لينقذ الموقف إذا كان هناك من إنقاذ له.

ويتضح ذلك من أنه في الأول من سبتمبر - أيلول ١٩٦٢ حين أرسل المشـير عـامر، استقالة مسببة إلى جمال عبد الناصر.. كان عبد النـاصر عـن طريـق مجلـس الرئاسـة، يرى أنه لابد من أن يتدخل في القـوات المسـلحة، ولا يتركـها كعزبـة للمشـير عـامر، لايعرف أحد عما يدور فيها شيئا.

وكان أعضاء مجلس الرئاسة جميعا يؤيدون ذلك، خاصة بعد ما حصل عام ١٩٥٦، وأيضاً بعد أن اتضح إلى حد،ما للمؤسسة العسكرية من مسؤولية في انفصال الوحدة بـين سورية ومصر، التي خرجت من مكتب المشير، ومن تحت أنفه. فأثناء تواجد عـامر في الإقليم الشمالي تحالف مع يمين مراوغ، ثم دخل في نزاع عبثي على السلطة والمسؤولية مع عبد الحميد السراج،أقرب السوريين إلى قلب عبد الناصر وثقته. وظهر غباء المشـير وانعدام كفايته ودرايته في الانقلاب العسكري المضحك عليه، فقد وصل دمشق قبل ٤٨ ساعة من وقوع الانفصال في سورية ٢٨ سبتمبر - أيلول ١٩٦١، وقام به (كاتم أسراره) في الجيش عبد الكريمَ النحـلاوي مـع رفاقـه مـن الضبـاط الآخريـن، وكـان عـامر قـد محضهم ثقته فوضعهم في مراكز القوة في المؤسسة العسكرية.

ولعل موقف عامر الرافض لأي تدخل في شؤون القوات المسلحة يمكن أن يلقي ظلالا كبيرة على صورة ما حدث عام ١٩٦٧، ويضع بعض النقاط أيضا في تحديد المسؤولية لهواة الندب على النكسة، وإبعاد المسؤولية عن عامر.

المهم أنه حتى في ظل ما حدث في ٥ يونيو – حزيران، فإن المشير لم يشأ أن يتحدث عن مسؤوليته العسكرية، ولكنه أعاد طبع استقالته التي قدمها قبل خمس سنوات سابقة، على أساس أن له موقفا أدى إلى الهزيمة، رغم أنه لم يتمسك بهذا الموقف.. فقد راح يعلن موقفه السياسي – وليس العسكري – القديم .

إن أحداث يونيو – حزيران عام ١٩٦٧ تبقى عالقة في أذهاننا. وعلى ما يرويه السادات أنه حين وقعت هذه الكارثة علم أن الخطة التي صدق عليها عبد الناصر غيرها بعد ذلك عبد الحكيم عامر بالكامل.. وكان هذا واضحا كل الوضوح، فقد احتلت إسرائيل العريش مساء ٥ يونيو مع أنها لم تستطع ذلك سنة ١٩٥٦ بينما كانت القوات المصرية في ذلك الوقت أضعف عشرات المرات مما كانت عليه في سنة ١٩٦٧.

وفي يوم الاثنين ٥ يونيو وبناء على تغييره للخطة أخذ عامر جميع القادة معه في طائرة وراح يفتش على سيناء، ومن الطبيعي أنه عندما يكون القائد العام في الجو تصدر الأوامر للصواريخ بالتوقف عن العمل. وفي هذه الأثناء ضربت إسرائيل جميع المطارات والطائرات المصرية وهي على الأرض.. هكذا يمكن أن يقال أن الحرب بدأت وانتهت وعامر في الجو في رحلته إلى سيناء.

كما أنه في جلسة ضمت السادات وعبد الناصر في بيت الأخير، قال له السادات (مش معقول يا جمال تسيب رياسة الجمهورية، وتقعد في الاتحاد الاشتراكي عشان عبد الحكيم وأعوانه يحكموا مصر.. إنت عارف أن عبد الحكيم أسوأ من يختار

معاونيه – هم اللي تسببوا في فشل الوحدة مع سورية – مع ذلك فعبد الحكيم متعصب لمعاونيه تعصب قبلي، تقول له نشيل صدقي قائد الطيران يقول قبل ما تشيلوه شيلوني أنا..خلقته كدا..).

ويروي السادات كيف عرف بكارثة ٥ يونيو قائلا: ((في صباح الاثنين ٥ يونيو عرفت من الراديو أن إسرائيل قد بدأت الهجوم فقلت في نفسي.. حسنا.. سوف يتعلمون درسا لن ينسوه مدى الحياة. كنت مطمئنا كل الاطمئنان.. فحلقت دقني وارتديت ملابسي وتوجهت بسيارتي إلى القيادة، كنت قد حضرت إعداد الخطة بالكامل وكانت ثقتي بالنصر أكيدة.. فعدتنا أكثر من كافية والخطة محكمة للغاية.. وصلت القيادة حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا وشاهدت سيارة السفير الروسي تتقدم سيارتي فقلت لابد أن السفير قد أتى اليوم ليقدم تهانيه.. سألت ما الأخبار .. فقال بعض الضباط إننا أسقطنا ٤٠ طائرة إلى تلك اللحظة.. قلت! عظيم!.. دخلت مكتب عبد الحكيم عامر فوجدته واقفا يتطلع حواليه بعينين زائغتين .. قلت له: صباح الخير فلم يرد. أعدت التحية فردها، بعد دقيقة على التو أدركت أن في الأمر شيئا .. سألت بعض الموجودين فقالوا أن سلاح الطيران قد ضرب بأكمله وهو على الأرض .. وبعد قليل رأيت جمال عبد الناصر يخرج من الصالون، ثم بدأ عامر يلقي باللوم كله على الأمريكان قائلا أن سلاح الطيران الأمريكي هو الذي ضربنا وليست إسرائيل.. ورد عبد الناصر (أنا لست مستعدا لتصديق هذا الكلام ولا لإصدار بيان رسمي بأم أمريكا هي التي اعتدت علينا إلا إذا أتيت إلي بجناح طائرة واحدة عليها العلامة الأمريكية)).)

وما جرى بعد ٥ يونيو من هزيمة وانتحار للمشير ألقى ظلاله على الصراع ما بين مجموعات الجيش ومجموعات عبد الناصر، حتى وصل إلى أشده في نهايات عهد

الأخير حيث كانت مجموعات عبد الحكيم عامر العسكرية تحقد على المجموعة المحيطة بعبد الناصر، والتي بدأت تلعب دورا أساسيا متناميا، وعلى رأسهم علي صبري وشعراوي جمعة وسامي شرف، وكان أن حوكم هؤلاء في عهد السادات.

ومن الملامح التي نقرأها في شخصية عبد الحكيم عامر ما كان قد فاجأ به رفاقه وأعضاء مجلس الثورة، حين بدأ يتكلم بلغة غير ما اعتادوها منه، فبدا كأنه زاد ثقافة سياسية جديدة، واتضح أن صلته بالفنانة برلنتي عبد الحميد، التي تزوجها فيما بعد، هي التي أوصلته، إلى هذا الوجه الأخير له. فهذه الفنانة في بدايتها الفنية كانت قد تزوجت من شخص كانت له ميول سياسية وأيديولوجية معينة، فحفظت بعض المصطلحات التي إذا ما فاهت بها المرأة العربية، عدت مثقفة تتميز عن غيرها من النساء.

ومن خلال العلاقة التي ربطت المشير مع هذه الفنانة، فقد تعلم هذا بعض المصطلحات التي لا يستخدمها عادة إلا الرفاق أو المثقفون، خاصة أن مضمونها الحقيقي، كثيرا ما كان غائبا عن عامر. وذات مرة لاحظ عبد الناصر أن عامر يستخدم مصطلحات ضخمة في كلامه، فطلب إليه أن يقرأ.. فقد كان عامر لا يجد لديه متسعا من الوقت للقراءة أبدا.

ويورد الكاتب المصري عبد الله إمام في كتابه عن علاقة المشير ببرلنتي عبد الحميد ((عامر وبرلنتي)) القصة التي تقول (أن عبد الناصر طلب في مرة من المرات من سامي شرف أن يتصل بالسفارة الصينية، وبالسفارة السوفيتية ليحضروا كتبا باللغة العربية تشرح فلسفتهم، وتوضح معاني المصطلحات التي يستخدم المشير بعضا منها، وأن يرسل سامي شرف هذه الكتب للمشير عامر).

ويضيف هذا الكاتب أن عامر حين كان يردد هذه الكلمات دون وعي كان يقول لـه عبد الناصر : (عاوز تتعلم.. نجيب كتب).

وبعد هزيمة ١٩٦٧ فقد المشير أعصابه بعد أن ضيع جيشه قبلها على حد تعبيرات جمال عبد الناصر بعد ٤٨ ساعة من الهزيمة، وكانت الظروف التي انفجرت فيما بعد قد أجهزت على ما تبقى من أعصابه، فقد كشفته قصة زواجه العرفي من برلنـتي عبد الحميد في مارس – آذار ١٩٦٣ الذي وقع عليه حسن ومصطفى عامر شقيقاه. وقد أثمر هذا الزواج طفـلا، ولم يعـرف جمال عبد النـاصر بذلك إلا بعد أكثر من سنتين، واستدعى عبد الحكيم عامر ليواجهه بما عرف، كما أن الرأي العـام عـرف ذلـك بعـد هزيمة ١٩٦٧. وحسب رواية محمد حسنين هيكـل كـان أسلوب عـامر المعتـاد عندمـا يوجه إليه أي تساؤل عن تصرف من تصرفاته أن يبدأ بإشـارة زوابـع صغـيرة، ويتخـذ مظهر الغاضب المجروح المعتدى عليه. وهكذا حين سأله عبد الناصر في موضوع زواجه السري بدا غاضبا ومتألما وقائلا: ((أنه سئم من هذه الحملات الموجهة ضده والتي تثور من وقت لآخر، وأنه لم يعد يطلب غير أن يبتعد ويستريح، وأنـه يفضـل أن يعـود إلى قريته (أسطال) بالمنيا، ويعيش هناك فلاحا عاديا، يزرع ويقلع، ولا يكون نائبا لرئيس الجمهورية أو نائبا للقائد الأعلى للقوات المسلحة)). وانتظر جمـال عبد النـاصر حتـى أفرغ ما لديه ثم كان تعليقه أن كل ما سمعه من المشير خارج الموضوع، وأن سؤاله كان سؤالا محددا وليست هناك جدوى من تجنـب الـرد عليه مباشـرة. وهكذا هبط عبد الحكيم عامر فورا من الغضـب إلى التظـاهر بـه دفاعـا عـن النفس، واعـترف بعلاقتـه بالسيدة برلنتي عبد الحميد، ولم يبرر تصرفه سوى أنه وجد أخيرا إنسانة تستطيع أن تفهمه، وكانت الدموع تلوح في عينيه وهو يحـاول أن يكتمـها، ثـم لم يتمـالك نفسـه، وراحت دموعه تجري على خديه في صمت. وسأله جمـال عبد النـاصر عن الظـروف

التي تعرف عليها فيها، وكان رد عبد الحكيم عامر أنه تعرف بها عن طريق صلاح نصر.

ومما قاله صلاح نصر رئيس المخابرات المصرية لجمال عبد الناصر أن عبد الحكيم عامر كان واقعا تحت ضغط عنيف في ظروف بداية النكسة، فقد أنجبست برلنتي منه طفلا وراحت تطالبه بأن يعلن زواجه منها لكي تجعل وضعها في المجتمع محتملا.. وكانت على استعداد لأن تذهب إلى أسرته، وتشرح موقفها وتطلب قبولها في الأسرة بحق الشريعة التي لاتحول بينها وبين هذا الطلب.

ويمكن ربط ظروف عبد الحكيم عامر الشخصية على هزيمته العسكرية، وقد كانت الهزيمة العسكرية تكفي لكي يفكر في الانتحار، وقد كانت فكرة الانتحار تعاوده دائما في اللحظات الحرجة من حياته. والغريب أنه في سنة ١٩٥٦ أعد خاتما فيه مخبأ يضع فيه جرعة من السم حتى ينتحر به إذا حدث ودخل الإنجليز إلى القاهرة خلال عمليات حرب السويس.

بعد هزيمة ٧ يونيو – حزيران ١٩٦٧ بأربع وعشرين ساعة عاودته الفكرة، وكان في مكتبه وسط مجموعة من قواده حين أعلن عزمه على الانتحار، وقام يحمل مسدسه متجها إلى حمام ملحق بمكتبه مصمما على إنهاء حياته بيده. وعندما تكالب عليه عدد من رجاله ينزعون منه المسدس ارتمى على مقعده ووضع رأسه بين كفيه ومال على مكتبه لمدة دقائق ساد فيها قاعة مكتبه صمت رهيب وحزين، في حين ذهب شمس بدران إلى الهاتف يتصل بالرئيس جمال عبد الناصر قائلا له: أن المشير مصمم على الانتحار. وذهب جمال عبد الناصر إلى مقر القيادة العليا يقول لعبد الحكيم عامر أنه أصبح منهارا بالكامل يوزع المسؤوليات على كل الناس ناسيا نفسه.

كان المشير بعد الهزيمة التي أحاطت به وطوحته بعيدا عن الواقع في حالة انهيار

عصبي.. وكان محاصرا بما جرى على المستوى العام، ومحاصرا بقصة زواجه السرية من برلنتي عبد الحميد، وإنجابه طفلا منها على المستوى الخاص. وضاعف من إحساسه بالحصار خوفه على مشاعر زوجته الأولى (زينب) والتي كانت امرأة ريفية، قوية، يحسب لها ألف حساب.

ولم تمر فترة طويلة وكان ذلك في ٢٦ أغسطس – آب ١٩٦٧ حين قرر جمال عبد الناصر تحديد إقامة عبد الحكيم عامر في بيته، وما أن وقع هذا الخبر على المشير حتى بدأ يصرخ ثم راح يبكي، ثم حاول أن يجري، ثم طلب أن يذهب إلى الحمام حين اصطحبه أنور السادات، وغاب في الحمام دقيقتين ثم خرج وفي عينيه نظرة غريبة ثم مشى مع أنور السادات إلى الصالون حيث كان ينتظرهما زكريا محي الدين وحسين الشافعي، ثم قال للكل: (أنه ابتلع سما، وأنه سوف يموت في ظرف دقائق) وارتمى على أحد المقاعد وكان ينتظر سريان مفعول السم، وهجم عليه أنور السادات يحاول استخراج شيء من فمه كان يبدو أنه يلوكه، وسارع زكريا محي الدين لطلب أطباء الرئاسة الذين جاءوا مسرعين، وجاء جمال عبد الناصر وسمع بما جرى، بينما كان ثلاثة من الأطباء قد أخذوا المشير إلى الحمام لمحاولة إسعافه بغسيل البطن إذا اقتضى الأمر، ومع ذلك لم تفلح هذه المحاولة.

ولكن في أقل من ثلاثة أسابيع وبالتحديد يوم ١٥ سبتمبر – أيلول نجحت محاولة الانتحار في منطقة الأهرام من القاهرة، ومات بالسم، وهذا لاخلاف عليه، ولكن بقي السؤال قائما: هل تناول السم بنفسه أم أجبر على تناوله.. لقد أثير هذا الموضوع أكثر من مرة وكانت التحقيقات تثبت أنه انتحر.

ومن يومها وبعد عشرات السنين وبين الفينة والأخرى تثار قضية انتحار المشير، ومع أنه جرى التحقيق بهذا الموضوع بعد وفاته بعشر سنين وحفظ التحقيق حين

استنفذ أغراضه، فإن ذلك لم يمنع زوجته برلنتي عبد الحميد بعد أن زالت عنها الشهرة، أو من أحد أقربائه أو من المقربين إليه الذين يرغبون بالشهرة، من أن يطلبوا التحقيق مجددا أو أن يضيفوا ألغازا أخرى إلى هذه القضية.

* * *

إن شخصية مثل شخصية المشير عبد الحكيم عامر تجعل المحلل النفسي باستطاعته أن يجول من خلالها في الكثير من أوجه حياته واضعا تحليلاته في خدمة القارئ الذي يريد أن يعرف التحليل النفسي لشخصياته السياسية.

وإذا كانت نهاية المشير هي الانتحار، فإن مثل هذه الشخصية تعرضت للهزة الأولى حين رقيت من رتبة الصاغ إلى رتبة المشير، أي رقي سبع رتب زيادة مرة واحدة، وهذا ما أدى إلى خلل وعدم اتزان نفسي، وهو ما جعله يتخيل أنه ملهم ولايقبل التنازل عن شيء لأنه يعتبر أن الدور الذي يقوم به رسالة سماوية، وأعطيت له مهام سياسية كبيرة كانت أكثر من القدرات التي يحتاجها قائد عسكري في هذا الوقت. لأنه من المستحيل أن يلم بالنواحي العسكرية والتقنية وتطورات الأسلحة والتدريبات، وفي نفس الوقت يكون مسؤولا عن مهام سياسية، وهكذا بدأت نهايته الأولى من هذه المناصب والمهام التي هي أكبر منه، ونظرا لطيبته فإن أي منصب آخر مدني كان أنسب له.

وعلينا أن لا ننسى هنا أن طيبته أوصلته إلى التفاف قرناء السوء حوله بحيث صار أسيرا لهم بما يوحنه إليه فكانت تصرفاته بعيدة عن طبيعته.

وفي ظل الوضعية التي وصلها من استلام منصب أعلى من تفكيره بمراحل إلى وقوعه أسير القرناء العابثين به فقد بدا وكأنه يلعب شطرنج وليس قائد جيش، وقد قتل يوم

الهزيمة، وكأي بطل أو كأي أسطورة، وكأي محارب لابد أن ينهي حياته بعد الهزيمة وكما يقول الدكتور أنور عكاشه (إنني في هذا السياق أرى أن النفس التي تحبه هي التي هيأت له فرصة الانتحار، فهذا الرجل دفن وراء مئات وألوف من الشباب قتلوا في المعركة. ولا شك أن هذه مسؤولية كبرى، وكون البعض يقول الآن أنه قتل، فهذا كلام غير مضبوط .. لقد انتحر).

ومن يدرك مدى قساوة حرب ١٩٦٧ يعرف جيدا كيف اهتز خيلاء المشير وهو الذي حسب نفسه مشير العرب فإذا بكل الأوهام التي وضع بها تهتز وتنهار عسكريا ونفسيا.

وإذا كانت هناك مخاضات وقعت أثناء توليه سلطاته قبل حرب ١٩٦٧ فهي تمثل جانبا عاديا في امتداد مرحلة زمنية طويلة. فحرب ١٩٥٦ تحولت من الهزيمة إلى النصر، والانفصال عن سورية حدثت في أعتابه وقائع لم تعط لهذه الحركة نصرها. إذن هزيمة ١٩٦٧ جعلته يصحو فجأة ليجد الشعب وقد ابتعد عنه، عدا مجموعة المشير التي أودت به إلى التهلكة.

وبما أن النكبات تؤدي إلى التهلكة فقد أحدثت هزيمة ١٩٦٧ للمشير أزمة هوية، فقيمته ووجوده ليس لهما معنى، كما أنه من المستحيل أن يستمر قائد للقوات المسلحة، وهو الذي يحمل صفة الكرامة والمروءة والشجاعة مع زواجه من فنانة تثير الشهوات، وتقلب الموازين. وهذا ما أحدث ارتباك شديد في شخصيته بعد انسحاب الأضواء عنه، وظهرت شخصيته الذاتية التي حاولوا أن ينسبوها له وهي أنه غير قادر على قيادة الجيش وغير قادر على النجاح، وبالتالي فإن صاحب شخصية كهذه سيصاب بالاكتئاب وبالتالي سيصبح أكثر عرضة للانتحار.

إن المشكلة التي تواجه هؤلاء الأشخاص هي مشكلة الواجهة وخلفها، وبالطبع

هناك تناقض بين الاثنين قد يكون صارخاً، مثال ذلك المطربة الفرنسية الشهيرة داليدا انتحرت حين شعرت أن الأضواء أخذت تنحسر عنها وأنها لم تعد كما كانت. والممثل الشهير شارل بواتيه ظل يرعى زوجته خلال مرضها بالسرطان وبعد وفاتها بثلاثة أيام انتحر رغم الإمكانات الكبيرة التي كان يحظى بها.

وبتبسيط أكثر فإن الإنسان الواعي المثقف يعرف أن التدخين يضره ويقضي عليه لاحقاً ومع ذلك فإنه يدخن، أو الذي يقترف المعاصي وهو يعرف أنه سيتعذب نتيجة ذلك. وفي حالة عامر كان التمتع بالسلطة والملذات يتغلب على الشعور بالذنب فيما عبد الناصر كانت تهمه القوة ولم تكن تهمه الملذات الدنيوية فلذلك حصل على ما يريده.

كانت اللامبالاة هي التي أوصلته إلى الهزيمة والانتحار .. اللامبالاة شواهدها كثيرة من خلال عمله ومن زواجه الفضيحة، ذلك أن الشخصية المتزنة تضحي بعواطفها في سبيل سمعة وظيفته.

وإذا كان المشير أخبر البعض من أصدقائه بنيته الانتحار فإن الدراسات ترجح كفة المنتحرين الذين يخبرون من حولهم بنيتهم في الانتحار بإنهاء قيمتهم الاجتماعية عندما يحسون أن وجودهم بلا قيمة. والانتحار هنا هو تحقيق لفكرة الحقارة والعار والذنوب والخطيئة التي يلصقها المريض بنفسه، وهي مختلطة مع بعضها البعض إلى درجة التشابك وهو مصدر الغموض والغرابة في السلوك الانتحاري.

وتمثل نسبة المنتحرين من فئة المشير عامر ما بين ٣٠-٣٥٪ من الحالات الانتحارية.

المراجع:

١. أنور السادات: البحث عن الذات المكتب المصري الحديث – القاهرة ١٩٧٨.

٢. محمد حسنين هيكل: الانفجار منشورات مؤسسة الأهرام – القاهرة ١٩٩٥.

٣. عبد الله إمام: عامر وبرلنتي سينا للنشر – القاهرة ١٩٨٨.

٤. سمير عبده: التحليل النفسي لشخصية السادات دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٩٦.

٥. برلنتي عبد الحميد: المشير وأنا مكتبة مدبولي الصغير – القاهرة ١٩٩٢.

٦. غسان الإمام : صحيفة الشرق الأوسط – لندن ١٩٩٧/٩/٩.

٧. مقابلة مع الدكتور أنور عكاشة: مجلة روز اليوسف ١١ أغسطس – أب ١٩٩٧.

٨. جمال حماد: مجلة آخر ساعة – القاهرة العدد ٣٢٧٧ ١٣ أغسطس ١٩٩٧.

أكرم الحوراني

لا يمكن تناول السياسة السورية منذ أواخر الثلاثينات والستينات من القرن العشرين دون المرور على اسم أكرم الحوراني، الشخصية الكاريزمية في حلبة السياسة السورية.

كان زعيما غير عادي، أحبه الكثيرون وكان لهم معلما ومدرسة فريدة في حد ذاته. فهو نظيف اليد، لا يعني المال له شيئا، عاش على الكفاف، ومات دون أن يترك لعائلته غير مذكراته.

والشيء الأساسي في شخصية الحوراني السياسية أنه كان وطنيا وعروبيا لا يختلف اثنان في وصفه هذا.

وقد برزت هذه الشخصية السياسية من ضمن الشخصيات التي كافحت الاستعمار الفرنسي وانبرت بعد الاستقلال إلى تقلد المناصب السياسية، سواء بواسطة أحزابها، أو كأفراد، وهيأتها الظروف لتلعب في ميدان السياسة السورية إلى أواخر حكم الانفصال ضد الوحدة السورية – المصرية الذي دام إلى ٧ آذار ١٩٦٣.

كان نجاح تلك القيادات وإلى حد كبير، في فترة ما بين الحربين العالميتين بإقناع سكان المدن المهمة سياسيا بأفكارها الوطنية التي تركزت على استقلال سورية، ولكن في أواخر فترة ما بين الحربين نضج جيل جديد لم يكن واعيا لفترة الحكم العثماني في

سورية ومعه بدأت تتغير القيادات السياسية السورية، وقد ترعرع هذا الجيل في ظل القمع الاستعماري الأجنبي وكان رافضاً الوضع الراهن الذي يحفظ للقادة التقليديين مكانهم المرموق، وكان طرحه الوطني يركز على التغيير والإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والوحدة العربية وعدم الانحياز في العلاقات الخارجية بعد الاستقلال.

وقد أدى استقلال سورية إلى تغير البنية السياسية في سورية، فالحكم كان شيئاً مختلفاً عن النضال ضد المستعمر الأجنبي، والذي حصل أن القيادة التقليدية لم تكن تتمتع بالكفاءة في هذا المجال، ولكن التغيير في البنية السياسية لم يحدث مباشرة، رغم أن الحزب الوطني، حصن القيادات التقليدية، وأزيح من الحكم عام ١٩٤٩ في أول انقلاب عسكري ناجح في العالم العربي، وإنما أثبتت تلك القيادات قدرتها، ولدرجة ملحوظة في الحفاظ على سلطتها مما جعلها تستمر خمسة عشر عاماً قبل أن تختفي نهائياً من الساحة السياسية في سورية.

ولد أكرم الحوراني في حماة عام ١٩١١ المدينة الوسطى في الخارطة الجغرافية لسورية، وكان تعداد سكانها لا يتجاوز الخمسين ألفاً لعائلة كان ربها تاجراً للأقمشة وملاكاً صغيراً للأراضي ورث ملكية قطع من الأرض استطاع أن يضيف إليها قطعاً أخرى إلى أن تمكن من ترك تجارته والاعتماد على تلك الأراضي.

ودرس الحوراني في حماة وتخرج من معهد العلم والتربية وذهب إلى دمشق، فانتسب إلى مدرسة النخبة الثانوية التابعة للدولة (مكتب عنبر)، وهذه المدرسة خرّجت أهم رجالات العلم في دمشق. وانتسب إلى الجامعة اليسوعية في بيروت لدراسة الطب عام ١٩٣١، ولكن بعد سنة من الدراسة قرر الحوراني انه لا يريد دراسة الطب وترك بيروت إلى دمشق حيث التحق بجامعتها لدراسة الحقوق وتخرج عام ١٩٣٦. وبعد تخرجه من كلية الحقوق عمل في مهنة المحاماة إلى أن انتخب عام ١٩٤٣ نائباً.

وعمل على تأسيس جريدة (اليقظة) بالمشاركة مع نائب آخر في مجلس النواب.

كان الحوراني أحد أبرز باعثي الحركة الفلاحية القلائل ولا سيما في ريف حماه والمنطقة، حيث كان والده يدعم الفلاحين والتجار في تلك الفترة ضد عوائل الملاكين الكبار مثل عائلة الأتاسي في حمص والكيلاني والبرازي والعظم في حماه، ولم تكن مثل هذه المعارضة للعوائل الإقطاعية أمر غير مألوف، فظروف حياة الفلاحين كانت تدعو لليأس وعلاقتهم بالعائلات الإقطاعية كانت متوترة لدرجة أنها كانت محفوفة بالعنف في كثير من الحالات.

ويرجع بدء وعيه السياسي إلى صيف عام ١٩٢٠ حيث ذهب مع بقية أطفال المدرسة الابتدائية لاستقبال الأمير فيصل في محطة حماه للقطارات، وكان متأثرا بجو الاستقلال والوطنية العربية التي تمتد جذورها إلى فترة أكبر، كما تأثر بالانتفاضات الوطنية التي قامت في سورية ضد المستعمرين الفرنسيين أمثال الشيخ صالح العلي الذي أعلن تضامنه مع حركة القومية العربية، كما تأثر بثورة ابراهيم هنانو في حلب، وبقريب له يدعى عثمان الحوراني الذي لم يعلم طلابه التاريخ فقط وإنما غذى في طلابه روح الحرية والاستقلال والمقاومة المسلحة والفخر بالإرث العربي، وكان أول اشتراك له في العمل السياسي المنظم عام ١٩٣٩ عندما انتسب إلى الحزب القومي الاجتماعي السوري بقيادة انطون سعاده، وجذب الحوراني إلى هذا الحزب علمانيته في المبادئ التي طرحها، واستقال من هذا الحزب بعد سنة من انتسابه له.

وكان الإعجاب متبادلا بين أكرم وقريبه عثمان حيث أصبحا فيما بعد على رأس حزب الشباب وهو الذي تكون من طلاب المدارس ومن جمعية المجاهدين برئاسة الحوراني، وكانت هذه الجمعية تضم رجالات الأحياء من مجاهدي، الثورة السورية عام ١٩٢٥ ومن مجاهدي، الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ بقيادة فوزي القاوقجي. وقد

نجح هذا الحزب في جعل حماه تضرب شهرا كاملا تـأييدا لمطالبـه، وقـد أثبـت هـذا الحزب للجماهير الفلاحية المشدوهة الطريقـة الفعالـة في مقاومـة السيطرة الإقطاعيـة، والوسائل التي ينبغي اعتمادها من أجل التحرير.

وعاضد الحوراني، رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد البريطانيين، وذهب إلى هناك مع مجموعة من الأنصار، ولما فشلت هذه الثورة عاد إلى بلاده حيث انتخب لأول مـرة عام ١٩٤٣ عضوا في مجلس النواب مشغوعا بتاريخه النضالي بالوقـائع الـتي ذكرناهـا، وبالتفاهم الذي تم بـين حـزب الشـباب والاتجـاه الشـعبي الـذي أصبـح يمثـل الكتلـة الوطنية وهو ما سمح له أن يفوز بالانتخابات بقائمة واحدة حتـى ضمـن اسـم الجبهـة الشعبية في مواجهة قائمة الإقطاعيين بقيادة نجيب البرازي وغالب العظم وفريد مرهج والأسر الإقطاعية الأخرى. وقد كانت هذه الانتخابات هـي الوحيـدة الـتي وحـد بـها الحوراني قواه مع الحزب الوطني أو غيره من الأحزاب من أجل النجـاح في المجلـس النيابي.

لم يكن الحوراني رجلا عاديا شـأنه شـأن النـواب الآخريـن، فقـد جـره المجلـس النيابي إلى التعبير عن آرائه بشكل بين وواضح مثل تطبيـق الضرائـب التصاعديـة وأن تتعهد الدولة القيام بمشاريع البنية التحتية الكبيرة التي سيكون هدفها توحيد الدولة.

ومن خلال صحيفة (اليقظـة) كـان يثبت أفكـاره ونظرياتـه بأبعادهـا الاقتصاديـة والاجتماعية فيما يتعلق بمشكلة الإقطاع وحقوق الفلاحين.

وكان الحوراني أحد النواب العديدين الذين وقفوا إلى جانب مساندة فلسطين وزيادة المساعدات لها إلى خمسة أضعاف، وقد جمع بعض الرجال حوله وذهـب إلى فلسـطين في أواخر كانون الأول من عام ١٩٤٧ مـع مجموعـة مـن الرجـال المثقفـين مـن معلمـين وأطباء وطلاب. وقد أعطت حرب فلسطين الدليل الأخير للحوراني ورجال جيله علـى

وجوب زوال الأنظمة التقليدية، وبالإضافة إلى ذلك فإن الحوراني ألقى اللوم على الأحزاب السياسية في فلسطين لعدم توعية الفلاحين من خطر العدوان اليهودي القادم، فمن خلال اتصالاته بالفلاحين وجدهم غير واعين تماما لما يجري في فلسطين، ولم يكونوا يصدقون الحوراني وجماعته عندما كانوا يحاولون تحذيرهم.

وشاب علاقة الحوراني بحسني الزعيم وعهده بعض اللغط وانتهى إلى أن ترك الحوراني دمشق بعد ثلاثة أسابيع من انقلاب الزعيم وتوجه إلى حماه. ودخل الوزارة في عهد سامي الحناوي وزيرا للزراعة، كما كلف بالإشراف على دائرة الدعاية والإعلام، بينما استلم عفلق وزارة الأشغال العامة، وقد استقال الحوراني من الوزارة بعد شهرين لمعارضته الوحدة مع العراق، أو كما جاء في تفسير أخر محتمل هو شعوره بأن فعاليته وتأثيره على مجرى الأمور قد تحدد بسبب كونه عضوا في الحكومة وبأنه يمكن أن يكون أكثر فعالية عندما يعمل من خارج الحكومة.

وكان الانقلاب العسكري الثالث الذي قاده ابن حماه أديب الشيشكلي، وقد وضعه خالد العظم الذي أفلح بعد تسعة أيام من قيام الحركة في تشكيلة وزارته فعين الحوراني وزيرا للدفاع. ومرة أخرى جرى الحديث عن علاقة الحوراني بهذا الانقلاب، كما كان الأمر في الانقلابين السابقين.

والى هنا ولوقت لاحق كان إجماع من تناول حياة أكرم الحوراني القول انه كان ذا تأثير واضح على الجيش منذ أول انقلاب حل في سورية عام ١٩٤٩ وتتابع الأحداث اللاحقة حيث كان يشجع الطلاب أبناء الفلاحين، وخصوصا أبناء منطقة حماه على الدخول إلى المدرسة الحربية في حمص. وقد كانت كل القيادات العسكرية التي لعبت فيما بعد دورا بارزا على المسرح السياسي في سورية قد تكونت بالفعل في هذا الجو.

وقد كان أول ذكر لاتصالات الحوراني بالجيش عندما انضم إليه بعض ضباط الفيلق

السوري لمساعدته في دعم ثورة الكيلاني القصيرة الامد في العراق عام ١٩٤١، وقد رأى بعد انتخابه لأول مرة في المجلس النيابي بأن عليه توسيع علاقاته بالجيش لأنه رأى أن الصدام المسلح هو الوسيلة الوحيدة لإخراج الفرنسيين من سورية، وكان الجيش من وجهة نظره في تلك الفترة وطنيا بمعظمه، وأن دوره يتعدى كونه القوة الضاربة التي ستطرد الفرنسيين من سورية إلى كونه طرفا مساهما ملتحما مع صفوف الشعب السوري في تحقيق الثورة الشعبية، ولقد بدا أن الفرصة قد حانت عند انهيار النظام في سورية ولبنان على أثر عناد الفرنسيين في عدم إعطاء سورية استقلالها التام وتدعيمهم مواقعهم العسكرية وقصف القوات الفرنسية دمشق، واندلاع القتال في عدد من المدن السورية.

إذن، كما رجح البعض فإن قوة الحوراني في الجيش كانت مستندة إلى الضباط الآتين من منطقة حماه وأنه يمكن تصنيف هؤلاء الضباط فيمن سموا بالجيل الرابع وهي الدفعات التي تخرجت من كلية حمص العسكرية ما بين عامي ١٩٤٦-١٩٥٢ وينحدر معظم ضباطها من الطبقة المتوسطة اقتصاديا، ويمكن تصنيفها إلى فئتين: الأولى التي كان ضباطها متعاطفين سياسيا مع الحوراني وراضين بقيادته، والثانية فئة من الضباط الذين كانوا يعتقدون بوجوب تغيير مجتمع حماه الإقطاعي ولكنهم لم يكونوا من حلفائه. وقد كان الحوراني يلح على شباب معينين للالتحاق بالكلية وأن بعضهم قد التحق نتيجة لطلب مباشر من الحوراني نفسه، حتى قال البعض أن الحوراني بالنسبة للعديد من المدنيين كان أهم شخص يتحمل مسؤولية تسيس الجيش بعد الاستقلال، ولكن هذه التهمة تتجاهل نوعية الأفراد الذين انتسبوا للجيش بعد عام ١٩٤٦ وطبيعة تفكيره السياسي لضباط الجيل الرابع.. أنهم كانوا قد تسيسوا تماما قبل وصولهم إلى الكلية العسكرية، وكانوا مستعدين لمتابعة تحقيق معتقداتهم باستعمال الأساليب العسكرية إذا اقتضى الأمر.

وهكذا نكون قد أوضحنا بعض الشيء دور الحوراني في تسيس الجيش، وقد جاء ذلك بعد الانقلابات التي مرت على سورية.

وكنا قد وقفنا عند تعيينه وزيرا للدفاع في حكومة خالد العظم التي شكلت عقب تسلم الشيشكلي لمقاليد الحكم في سورية، وبعد فترة قصيرة استقال الحوراني في ١٩٥٠/٤/٢٦ من الوزارة، حتى قال البعض (كما جاء في الأرشيف القومي للولايات المتحدة برقم ٩ وتاريخ ١٩ آذار ١٩٥٠) أن الحوراني كما العظم، يصبو لرئاسة الجمهورية ويعمل ضد رئيس الوزراء. وهكذا بقي الحوراني خارج السلطة إلى عام ١٩٥٨ حينما قبل أن يصبح نائبا لرئيس الجمهورية العربية المتحدة.

وفي هذا الوقت من عام ١٩٥٠ تأسس الحزب العربي الاشتراكي على أنقاض حزب الشباب، وهو الحزب الجديد وكان أقرب إلى تجمع مدني سيطر على منطقة حماه وريفها، من خلال نضال قاده الحوراني وأثبت به زعامته لمنطقته، ومع أن الحزب كان له فروع في خارج حماه، فإن نفوذه السياسي لم يكن بالزخم الذي كان عليه في حماه بالمطلق.

وحين اندمج الحزب العربي الاشتراكي مع حزب البعث العربي عام ١٩٥٤ كان توسع نفوذ الحزب الجديد لصالح البعثيين، وهكذا بقي الحوراني يستمد نفوذه بشكل كبير من منطقته، ومن قوته في أوساط الجيش ومن تحالفاته مع السياسيين الآخرين. وكان العمل الجبهوي ضمن ميثاق هو الإطار الذي يحدد طريقة عمله السياسي، وقد بلغ هذا الاتجاه مداه في الميثاق بين الأحزاب الذي أعلن عام ١٩٥٧ وأدى آنذاك إلى ما يسمى بحكومة التجمع الوطني، وذهب في اعتقاده إلى أن الالتقاء مع الفئات السياسية الأخرى هو عامل نضال في استمرار الحياة الديمقراطية البرلمانية، ولا سيما أنه كان في

كل الأحزاب العاملة على الساحة السياسية السورية، أجنحة يلتقي معها في إرادة المحافظة على النظام الجمهوري والعمل للتوصل إلى تشريعات تقدمية.

وفي العودة مرة ثانية إلى دور الحوراني في فترة حكم الشيشكلي نرى انه بعد استقالته، فقد قلص نشاطه ولكنه لم يخفض صوته، حتى قيل أنه في نهاية عام ١٩٥٠ وبداية عام ١٩٥١ جرت مفاوضات بين الحوراني والكتل المعارضة الأخرى لتكوين جبهة معارضة يكون (هدفها الأساسي إسقاط الوزارة للقدوم بحكومة ائتلافية)، ومرة أخرى نرى مدى مناورة الحوراني في حلبة السياسة السورية، فصدامه كان أولا مع رؤساء وزاراتها ثم انقلب على الشيشكلي في تشرين الثاني ١٩٥١ حتى أنه وضع في الإقامة الجبرية في ١٩٥٢/١٢/١٩ وتمكن الحوراني بتاريخ ١٩٥٣/٢/١٠ وقادة البعث عفلق والبيطار من الإفلات من الاعتقال وعبروا الحدود السورية إلى لبنان حيث أخذ هؤلاء القيام بالنشاطات المعادية لحكم الشيشكلي وهو ما جعل الحكومة اللبنانية تقوم بطردهم إلى خارج أراضيها . وهذا ما جعل جماعة الحوراني ينشطون من خلال الجيش في التحضير لانتفاضة قادها مصطفى حمدون من حلب في ١٩٥٤/٢/٢٥ وأدت إلى هرب الشيشكلي من سورية، وعودة النفوذ السياسي إلى الحوراني في الساحة السياسية السورية.

ووصف السفير البريطاني غاردنر في رسالته إلى إيدن بتاريخ ١٩٥٤/٣/٨ الأوضاع في سورية منهيا رسالته بالقول: كان الحوراني قائد اليسار الأساسي واحدا من أدهى وأقدر رجالات سورية، وهو المستفيد الأكبر من ذلك. وحسب هذه الرسالة فإنه يبدو أن للحوراني تنظيما فعالا نسبيا تحت أمرته، وإن له نفوذا وتأثيرا بين الجماهير والطلاب الذين يلعبون (لسوء الحظ) دورا مهما في الحياة السياسية السورية.

أدى الحكم الجديد إلى عودة الحياة البرلمانية وصار للحوراني صولة وجولة في

توجهات السياسة السورية، إلى أن تمت الوحدة بين القطرين السوري والمصري عام ١٩٥٨ فعين في منصب نائب رئيس الجمهورية ، ولكنه ما لبث أن اختلف مع العهد الجديد فترك منصبه ونصب خيمة العداء والكراهية لحكم الوحدة ولعبد الناصر.

وحين وقع الانفصال بين سورية ومصر عام ١٩٦١ عاد مرة ثانية إلى واجهة الأحداث ولكن بضعف ونفوذ سياسي أقل من السابق وببريق أضعف، وحين وقعت ثورة ١٨ آذار ١٩٦٣ كانت بداية نهاية نفوذه على حلبة السياسة السورية، فانشق بعض من كان في حزبه السابق قبل الاندماج وتعاون لاحقا مع الحركة التصحيحية التي قادها الرئيس حافظ الأسد عام ١٩٧٠، وبقي للحوراني الذكرى بين مريديه وأتباعه وأصدقائه، وغالبيتهم من مدينته حماه، بعد أن تنقل في المنفى الاختياري بين عدة عواصم إلى أن توفي في عمان عام ١٩٩٧.

وتاريخ السياسة السورية سوف لا ينسى ذكرى هذا الشخص الذي كان أقرب إلى مفهوم (الزعيم) من أن يكون صاحب حزب أيديولوجي، وهو الإنسان الذي اتصف بالبساطة والأنس حيث نظراته الحية تشع بالذكاء.

وهكذا تبقى الأمور رهينة بحياة الأشخاص أكثر من حياة الحزب، والتجربة السياسية في أقطار الوطن العربي زاخرة في مثل هذه النماذج، مع تعدد المفهوم الأيديولوجي لها، وهي صيغة تدل على التركيب الاجتماعي لهذه الأمة.

* * *

بعد هذا العرض للسيرة الذاتية لحياة أكرم الحوراني، فإن محورية بحثنا تفرض علينا التساؤل لماذا لم يكمل دراسة الطب، أو يتابع طريقه في المحاماة، أو أن يصبح غنيا، أو مهندسا، أو يستحب كفاف العيش ويؤثر السلامة.

وإذا كان جواب ذلك موجودا في ثنايا السيرة الشخصية التي تناولناها، من الرجوع إلى ماضيه إلى حين وفاته، إلى الظروف التي عاش فيها والأحوال التي كان عليها، إلى بيئته وبيته، إلى وراثته ومحيطه، إلى العوامل التي كونته والدوافع التي دفعتـه.. فـإن كل ذلك يساعد المحلل في إعطـاء بعض الملامح للتكوين النفسـي في شـخصية أكـرم الحوراني السياسية.

إن الفرد منا يندفع لأشياء ويرغب في أمور قد لايندفع لهـا سـواه ولا يرغـب فيـها غيره، ومن هنا كان لابد لنا من فـهم الإنسـان –أي إنسـان– مـن أن ندرسـه دراسـة مستفيضة تتناول حاضره وماضيه، وراثته ومحيطه، ظروفه وأحواله لنستطيع أن نحكم على شخصيته.

وللإنسان حوافزه الفردية وهي هامة جدا في فهمه أولا وفي إسعاده وإسعاد مجتمعـه ثانيا، وهي على صلة أيضا بالحوافز الاجتماعيـة الفيزيولوجيـة ولكنـها تتلـون بـاللون الفردي. فإذا كنا جميعا نحب أن نأكل، ونحن نأكل لنحفـظ بقاءنـا، فـإن فلانـا مـن الناس يحب هذا الطعام ويكره ذاك لأسباب شخصية.

ولهذا قيل الكثير في تكون شخصية الحوراني، حتى أن البعض ذهب إلى انـه كـان يعاني من نرجسية ظاهرة وهي ما أثرت على دوره السياسي اللاحق. ولا يمكن الجـزم هنا بمدى هذه النرجسية، ولكن ربما كـانت لـه بعض الأوهـام التخيلية حيث كـان يتوصل إلى أحكام ونتائج خاطئة، كما جرى له منذ أزيـح عـن السـلطة، حيـث أخـذ يطلق الأحكام الحدية على مواقف الأشخاص والزعماء الذين عاصروه في فـترة ازدهـاره السياسي.

وقد تكون له بعض الأوهـام الإدراكية حيث كـان يذكر حـوادث غريبـة وطاغيـة كالعمالة التي كالها للرئيس جمال عبد الناصر وغيره من الساسة.

بيد أن هذه الأعراض لا يمكن الركون إليها، فما كان يقال عن أكرم الحوراني لايمكن وصفه بـ (الحصر) لأنه كان يريد من جلسائه أن يتقبلوا كل ما يطرحه، وإن خالفوه، صب جام غضبه عليهم، متهما ومسترسلا في غيابهم، حتى قال البعض ممن ذكرناهم في مراجعنا، أنه لم تسلم شخصية وطنية أو عربية خالفته المسار، أو نافسته الطموح، أو تجاوزته كمركز قوة ابتداء من عبد الناصر إلى شكري القوتلي، مرورا بصلاح الدين البيطار وميشيل عفلق وياسر عرفات.

ولا يمكن لنا أن نصل في تحليل شخصية أكرم الحوراني إلى الديكتاتورية المطلقة حيث تتطلب من المريد السلبية التي هي مظهر لفقدان الإرادة، إذ أن المريد أو التابع أو الحزبي ينفذ الأوامر والإيعازات التي تلقى عليه دون نقاش أوتردد، وهويردد نفس الأقوال التي تلقى أمامه كترديد الصدى، أو يؤدي الحركة التي تنفذ أمامه كتقليد الببغاء، ولو كان الأمر كذلك لانقسم حزبه قبل أن يندمج مع البعث إلى عدة انقسامات كما حدث لأحزاب الأخرى.

ومن المعروف أن حامل الشخصية القهرية هو الفرد الذي يضطر للقيام بعمل رغما عنه ومن محاولته مقاومة ذلك الفعل والامتناع عن إتيانه، وكلاهما من علامات القلق أو(الحراض)القهري، ويختلف الحصر القهري عن الوهم الحقيقي بكونه غير مقبول لدى الشخص نفسه. ونجد مثل هذه الشخصيات وهي تبحث عن أعمال أو وظائف أمينة لا تتطلب إلا روتينا معينا، كما نجد سندا قويا في الطقوس الدينية التي ترضي ميولهم الدقيقة المتزمتة.

إن خصوم الحوراني -الأصدقاء السابقين - قالوا أن عبد الناصر لو تركه يحكم سورية، كما كان يطمح، لأعدم كل خصومه السياسيين مع نصف أنصاره بتهمة العمالة، وهذا يشير بمصطلح علم النفس إلى (اضطراب الحقيقة الخارجية) حيث يشعر

الأنا بأن العالم الخارجي قد طرأ عليه بعض التبدل وكأن الحقيقة الموضوعية لم تعد كما هي، وهذه الحالة تتبع في بعض نواحيها الشخصية القهرية.

وحقيقة كون دوره السياسي بناء أم لا بسبب نرجسيته وجمود تفكيره مع أحداث حقبة الخمسينات، وأن تكون المفارقة العجيبة أن يختار أكرم الحوراني في مأواه الأخير، عاصمة الأردن، وضيافة الملك حسين بعد أن قضى معظم حياته وهو يهاجمه ويتهمه بالخيانة - ونحن ننقل هنا ما كتبه أحد الأصدقاء السابقين له - فإن هذا الوصف يبعد عن الواقع ويصل إلى درجة الهجوم الشخصي عليه، فنرجسية الحوراني (وكلنا نحمل شيئا من النرجسية) ربما كان مردها كما تراءت له بعلو أفكاره وسمو طروحاته، أما جمود تفكيره فهذا مرده إلى المرحلة التي عاشها الحوراني، من نشأته في الحزب السوري القومي الاجتماعي إلى معاصرته لأيام حكم ستالين... كل ذلك قد يكون أثر بعض الشيء في جمود تفكيره، ولكن البعض قد يقول أن نقلته من الحزب القومي إلى الاشتراكي هي نقلة نوعية، وهذا صحيح أيضا ربما لأن الاثنين كانا يدعوان إلى نوع من الاشتراكية، على أن اشتراكية الحوراني بعدت كثيرا عن اشتراكية القوميين، حتى في البعد السياسي للموقف.

وفيما يخص ضيافة الملك حسين له في مراحل اغترابه عن بلاده، فلعل ذلك ناشئ عن سلوكه اللاشعوري وهو الذي يظهر أثناء الوعي واليقظة لكن جذوره ومسبباته في اللاشعور. فالحوراني الذي وصل إلى الأردن (مع أن الحديث عن هذا البلد يتبع التغيرات السياسية التي رافقته من تضامنه مع العراق، المساعد للحوراني في مرحلة اغترابه القسري، إلى تغير المواقف) فإن شخصية الحوراني هنا كمن ركب حافلة غير التي كان يريد أن يستقلها للوصول إلى مكان معين. ربما كان في قراءة لاشعوره لايرغب في الوصول إلى ذلك المكان (المزعج) بالنسبة له، فكانت غلطته (اللاشعورية) تحقيقا

لرغبته الأصلية والشخص الذي يريد أن يكتب رسالة ثم يبحث عن القلم فلا يجده، ربما لأن موضوع الرسالة مؤلم أو أن المرسلة إليه شخص غير محبوب.

وذهب البعض ممن عايشوه إلى أن الحوراني كان أسير العقلية المزاودة، ونظرية المؤامرة التي سادت مدارس اليسار القومي والماركسي العربي طويلا، وكانت أمريكا والغرب بالنسبة إليه استمرارا لإسرائيل وحلف بغداد وفراغ أيزنهاور.. وكل نظام كان يرفض هيمنة موسكو ويسعى لإقامة علاقات سياسية واقتصادية مع مراكز القوى الأمريكية أو الغربية عامة (كما تفعل إسرائيل والجاليات اليهودية) مثلا . ويذهب تحليلي هنا إلى أن المنطلقات التي أخذ بها الحوراني هي التي كانت تمثل له ثوريته الخاصة، فالإنسان الذي يولد في محيط، لا يتوجب عليه فقط أن يتعرف على محيطه، بل إن من المحتوم عليه أيضا أن يتعامل مع هذا المحيط . إن عليه أن يحفظ بقاءه وعليه بالتالي أن يقضي حاجاته وأن يلبي دوافعه وحوافزه ومن ثم يستجيب لها، مثل حافزه إلى الاجتماع بأمثاله، وحافزه إلى التفوق، وحافزه إلى الدفاع عن نفسه. وعليه أخيرا أن يستجيب لرغباته، رغبته في كذا أو كذا من الأمور التي يعتبرها محققة لدوافعه الفيزيولوجية وحوافزه الاجتماعية. وهو في ذلك كله يخضع لمؤثرات ويقوم باستجابات، أنه يخضع لمؤثرات خارجية محيطيه ويقوم باستجابات ظاهرة وباطنة تؤلف في مجموعها ما نسميه بالسلوك أو التصرف، وتتجلى من خلالها صفاته وطبائعه وأمزجته مجتمعة كلها فيما يسمى أوضاعه ومواقفه التي تكون مظاهر شخصيته.

وتتجمع في شخصية أكرم الحوراني الكثير من الملامح النفسية التي أضفت على شخصيته طابعها الخاص، فإذا كان قد بدأ تعاطي السياسة على خطورتها وتعقيداتها من خلال مدينته حماه بعقلية الصراع مع آل البرازي وآل العظم وما بين السوق

والحاضر* إلى تحرير الفلاحين من الإقطاعيين إلى إيصال الفكرة السياسية إلى الطلاب الضباط والشروع بالحركات الانقلابية إلى قبوله للمناصب السياسية الكبرى ثم إبعاده، فإن هذا التطور في العمل السياسي قد لازمه إلى نهاية حياته.

لم يكن الحوراني ينظر إلى نفسه إلا بمنظار المدرك سلفا لما سيقع، ولم يكن ليساوم إلا ليفوز، ولم يستطع أن يخضع الكل لمشورته إلا في مدينته حماه، ولم يكن بالسياسي التكنوقراطي بل بالسياسي الانقلابي. ولو لم يأخذ (الانقلابات) مطية له لكان حمل لقب الثائر والثوري ولبقي اسمه معروفا بهذا اللقب، ولكن الحوراني لايمكن أن يكون كذلك بنفس المقياس، فهو قد مارس اللعبة السياسية (من خارج بلده) حين ذهب إلى فلسطين مجاهدا، وفي دمشق معارضا، وفي القاهرة مناورا، وفي بيروت محدثا، وفي بغداد مرغما، وفي باريس فيلسوفا، وفي عمان متحسرا، إلى أن وافته المنية.

وإذا كان قد تصالح مع الكل بعد الخمسين من عمره حين أبعد عن المسؤوليات السياسية، فإنه لم يعد إلى بلده راضيا بماضيه، تاركا ذكرى في مدينته لا يمكن محوها مهما تباعد أهاليها في اتجاهاتهم السياسية، والى أن يأتي زعيم أخر لهذه المدينة فستبقى صورة الحوراني ماثلة بماضيه وما صنع به.

---

* حي من أحياء حماه

المراجع:

١. سمير عبده: حدث ذات مرة في سورية دار علاء الدين – دمشق ١٩٩٨.

٢. فاخر عاقل: اعرف نفسك دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦٤ .

٣. جوناثان أوين: أكرم الحوراني–دراسة حول السياسة السورية ما بين ١٩٤٣–١٩٥٤ (لم يذكر اسم المترجم) – بيروت ١٩٩٦ .

٤. مايلز كوبلاند: لعبة الأمم ترجمة مروان خير مكتبة الزيتونة – بيروت ١٩٧٠.

٥. ستيفن هامسلي لونغريغ : تاريخ سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ترجمة بيار عقل دار الحقيقة–بيروت ١٩٧٨

٦. مجاهد جميل سمعان: رأفة بالحقيقة صحيفة الشرق الأوسط–لندن رقم٦٨٩١ تاريخ ١٠/١٠/١٩٩٧ .

7- Eysenck ;H.J:the Strueture of human Personality . London , Methuen & Co.Ltd. 1955 .

8- Eysenck, H.J.the Psychology of Polities . London , Methuen & Co 1954 .

المراجع

باللغة العربية

١- الجندي، سامي: البعث: دار النهار للنشر - بيروت ١٩٦٩.

٢- الدباغ، د.فخري: أصول الطب النفساني: دار الطليعة - بيروت ١٩٨٣.

٣- الخوري، كوليت: أوراق فارس الخوري الطبعة الأولى: دار طلاس- دمشق ١٩٨٩.

٤- السيد، عبد الحميد محمود: الإبداع والشخصية-دراسة سيكولوجية: دار المعارف بمصر ١٩٧١.

٥- السادات، أنور: البحث عن الذات: المكتب المصري الحديث-القاهرة ١٩٧٨.

٦- إمام، عبد الله: عامر وبرلنتي: سينا للنشر - القاهرة ١٩٨٨.

٧- جنبلاط، كمال: هذه وصيتي: نشر مؤسسة الوطن العربي - باريز ١٩٧٨.

٨- خضوري، مجيد: عرب معاصرون- أدوار القادة في السياسة: الدار المتحدة للنشر- بيروت ١٩٧٣.

٩- خباز، حنا وحداد، جورج: فارس الخوري، حياته وعصره: مطابع صادر ريحاني-بيروت ١٩٧٣.

١٠- رافق، د.عبد الكريم:العرب العثمانيون ١٥١٦-١٩١٦ :مطابع ألف باء - الأديب دمشق ١٩٧٤.

١١- زويا، لبيب:تحليل وتقييم الحزب القومي الاجتماعي. ترجمة جوزيف شويري :دار ابن خلدون - بيروت ١٩٧٣.

١٢- سويف، مصطفى:الأسس النفسية للإبداع الفني:دار المعارف القاهرة.

١٣- شرابي، د.هشام:الجمر والرماد:دار الطليعة-بيروت ١٩٧٨.

١٤- صفدي، مطاع:حزب البعث:دار الطليعة-بيروت ١٩٦٤.

١٥- طلاس، مصطفى:مرآة حياتي : العقد الثاني ١٩٥٨-١٩٦٨:دار طلاس للنشر - دمشق ١٩٩٥.

١٦- عاقل، د.فاخر:اعرف نفسك:دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٤.

١٧- عبد الحميد، برلنتي:المشير وأنا:مكتبة مدبولي الصغير القاهرة ١٩٩٢.

١٨- عبد الملك، أنور:مصر مجتمع جديد يبنيه العسكريون :دار الطليعة - بيروت ١٩٦٤.

١٩- عبده، سمير:التحليل النفسي لشخصية السادات:دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٩٦.

٢٠- عبده، سمير:حدث ذات مرة في سورية-دراسة للسياسة السورية-العربية ١٩٥٨-١٩٦٣:منشورات دار علاء الدين - دمشق ١٩٩٨.

٢١- فرزات، حرب:الأحزاب السياسية في سورية:منشورات دار الرواد - دمشق ١٩٥٤.

٢٢- نجيب، محمد:كلمتي للتاريخ: بيروت ١٩٧٥.

٢٣- هيكل، محمد حسنين:الانفجار:منشورات مؤسسة الأهرام - القاهرة ١٩٩٥.

٢٤- دون ذكر المؤلف: ثورة العراق ١٤ تموز: مكتبة النوري - دمشق ١٩٥٨.

٢٥- دون ذكر المؤلف: جمهورية العراق الفتية وأسرار الانقلاب العراقي: مكتبة النوري - دمشق ١٩٥٨.

٢٦- اوين، جوناثان: أكرم الحوراني - دراسة حول السياسة السورية ما بين ١٩٤٣-١٩٥٤ (لم يذكر اسم المترجم): بيروت ١٩٩٦.

٢٧- تورى، جوردون، هـ: السياسة السورية والعسكريون : ترجمة محمود فلاحة: دار الجماهير دمشق ١٩٦٩.

٢٨- جوتشلك، لويس: كيف نفهم التاريخ : ترجمة د. عائدة سليمان العارف ود. أحمد مصطفى أبو حاكمة :دار الكاتب العربي - بيروت ١٩٦٦.

٢٩- دوفرجيه، موريس: في الديكتاتورية : ترجمة د. هشام متولي: منشورات عويدات - بيروت ١٩٦٥.

٣٠- سيل، باتريك: الصراع على سورية : ترجمة سمير عبده ومحمود فلاحه: دار الأنوار - بيروت ١٩٦٨.

٣١- شابرى، لورانت، آني شابرى: سياسة وأقليات في الشرق الأدنى - الأسباب المؤدية للانفجار : ترجمة د. ذوقان قرقوط: مكتبة مدبولي-القاهرة ١٩٩١.

٣٢- فان دام، نيقولاس: الصراع على السلطة في سورية (دون ذكر اسم المترجم): مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٩٥.

٣٣- كوبلاند، مايلز: لعبة الأمم : ترجمة مروان خير :مكتبة الزيتونة بيروت.

٣٤- لونغريغ، ستيفن هامسلي: تاريخ سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي: ترجمة بيار عقل: دار الحقيقة - بيروت ١٩٨٨.

صحف ومجلات

٣٥- صحيفة البلاد - دمشق: ٣٠/أيار/١٩٤٦.

٣٦- صحيفة الحياة-لندن: العريس، ابراهيم: هكذا كانت نهاية عبد الكريم قاسم ١٩٩٦/٢/٨.

٣٧- صحيفة الحياة-لندن: عبد الناصر، وليد: تاريخ ١٩٩٧/٣/٢٠.

٣٨- صحيفة الشرق الأوسط-لندن: الإمام، غسان: ١٩٩٧/٩/٩.

٣٩- صحيفة الشرق الأوسط- لندن: سمعان، مجاهد جميل: رأفة بالحقيقة: رقم ٦٨٩١ تاريخ ١٩٩٧/١٠/١٠.

٤٠- مجلة أخر ساعة - القاهرة: العدد ١٩٦١ : ٢٤/يوليو/١٩٩٣.

٤١- مجلة أخر ساعة - القاهرة: العدد ٣١٧٠ ٢٦ يوليو١٩٩٥ حماد، جمال: بين الساعات الأولى والأخيرة من حكم فاروق.

٤٢- مجلة أخر ساعة - القاهرة: العدد ١٣ : ٣٢٧٧/أغسطس ١٩٩٧-حماد، جمال.

٤٣- مجلة أخر ساعة - القاهرة: العدد ٣١٧٦ ٦/سبتمبر ١٩٩٥ - حلمي، سلام: محمد نجيب والبداية..كلمة

٤٤- مجلة أخر ساعة - القاهرة: العدد ٣١٧٠ ٢٦/يوليو١٩٩٥-علام، حسن: اسم محمد نجيب لن يسقط من ذاكرة التاريخ أبدا.

٤٥- مجلة آخر ساعة - القاهرة: العدد ٣١٧٥ تاريخ ٣٠/أغسطس -أب ١٩٩٥- محمد، محسن: غراميات صاحب الجلالة.

٤٦- مجلة روز اليوسف - القاهرة: ١١/أغسطس - آب ١٩٩٧: من مقابلة أجريت مع د. أنور عكاشة.

٤٧- مجلة القضايا المعاصرة - بيروت: الجزء/الأول/ تموز ١٩٦٩ -صعب، أدوار: البعث-حزب أم حكم.

٤٨- مجلة زوايا - باريس: العددان ٢و٣ أيلول ١٩٨٩ كانون الثاني ١٩٩٠- الوزان، عبد الله: وداعا ميشيل عفلق.

٤٩- مجلة مواقف - لندن: العدد ٧٠-٧١ شتاء - ربيع ١٩٩٣.

٥٠- مجلة اليوم السابع - باريس: تاريخ ٢٨/٥/١٩٨٤.

٥١- مجلة الوسط-لندن: العدد ٢٨٦: تاريخ ١٧/٣/١٩٩٧.

باللغة الأجنبية

52. Anderson. H (ed) Creativity and its Cultivation , HARBER, New York 1956 .
53. Carr,E.H :What is history . Pelican Books ,London 1964
54. Dawn, c. Ernest: the Riss of Arabism in Syria Middle East journal , Vol 16 , No 2 , Autumn 1961
55. Eysenck ;H.J:the Strueture of human Personality . London , Methuen & Co.Ltd. 1955 .
56. Eysenck, H.J.the Psychology of Polities . London , Methuen & Co 1954 .
57. Eysenck,H.J:Dimensions of Personality. Routledge & Kegan Paul ltd ,London 1956
58. Hourani,A syria and Lebanon, P .144 ,Hourani, Mimorities in the Arab World , P.36 , Biegel , Minderheden in het Midden Osten P.112
59. jones Ernest : the life and Work of Sigmund Freud . Basic Books . New York 1955
60. Kroeber , A . L : CONFIGURATIONS OF Growth . Berkeley , Calif 1956 .
61. Leavis , F . R :the Great Tradition . Oxford University , London 1948 .
62. National Archives (USNA) : Record Group 59 , General Records of the Department of State , Dectral Files,1941- 1959 , Record Group 84 , Records of the Diplomatic Posts , Damascas Post Files , 1947- 1955 .

كتب للمؤلف سمير عبده
في مجال علم النفس

١. تحليل مائة حالة نفسية................................ بيروت ١٩٨٣
٢. تحليل مائتي حالة نفسية................................ بيروت ١٩٨٥
٣. التحليل النفسي للأمثال العربية................................ بيروت ١٩٨٥
٤. نفسيات المشاهير................................ بيروت ١٩٨٦
٥. التحليل النفسي للأبراج................................ بيروت ١٩٨٦
٦. التحليل النفسي لروائع الأدب العالمي................................ بيروت ١٩٨٦
٧. الأحلام: تحليل مائة حالة نفسية................................ بيروت ١٩٨٦
٨. الخوارق النفسية................................ بيروت ١٩٨٦
٩. التحليل النفسي للفنانين العرب................................ بيروت ١٩٨٦
١٠. الحب والزواج: تحليل مائة حالة نفسية................................ القاهرة ١٩٨٦
١١. المرأة العربية: تحليل مائة حالة نفسية................................ القاهرة ١٩٨٩
١٢. التحليل النفسي لرواد علم النفس الحديث................................ القاهرة ١٩٨٩
١٣. التحليل النفسي للجريمة................................ القاهرة ١٩٨٩
١٤. التحليل النفسي للجاسوسية................................ القاهرة ١٩٨٩
١٥. التحليل النفسي لغراميات المشاهير................................ القاهرة ١٩٩٠
١٦. التحليل النفسي للجنون................................ القاهرة ١٩٩١
١٧. التحليل النفسي لشخصية جمال عبد الناصر................................ القاهرة ١٩٩٢
١٨. التحليل النفسي للاستخبارات................................ القاهرة ١٩٩٢

١٩. التحليل النفسي لحوادث غير عادية.................. القاهرة ١٩٩٣
٢٠. التحليل النفسي لجنون جي دي موباسان............... القاهرة ١٩٩٣
٢١. التحليل النفسي لحالة انتظار الموت..................... القاهرة ١٩٩٣
٢٢. تحليل خمسين حالة نفسية.......................... القاهرة ١٩٩٣
٢٣. مشاكل الناس: تحليل مائة حالة نفسية.................. القاهرة ١٩٩٣
٢٤. العلاقات المشتركة بين الرجل والمرأة: تحليل مائة حالة نفسية... دمشق ١٩٩٤
٢٥. التحليل النفسي للمكاشفة الباطنية..................... دمشق ١٩٩٤
٢٦. التحليل النفسي لقوة الاستدلال........................ دمشق ١٩٩٤
٢٧. التحليل النفسي للأقوال المأثورة....................... دمشق ١٩٩٤
٢٨. التحليل النفسي للانتهازية............................ القاهرة ١٩٩٤
٢٩. التحليل النفسي لشخصية أنور السادات................. القاهرة ١٩٩٦
٣٠. تعلم كيف تمارس علم النفس.......................... دمشق ١٩٩٧
٣١. هو وهي: تحليل مائة حالة نفسية........................ دمشق ١٩٩٧
٣٢. التحليل النفسي لشخصيات سياسية عربية................ دمشق ١٩٩٩
٣٣. التحليل النفسي للعقلية الشامية........................ دمشق ١٩٩٩

ترجمة

٣٤. مشكلات نمو الأطفال، عمانويل ميلر — بيروت ١٩٦٦.
٣٥. علم النفس الديني، سيريل بيرت — بيروت ١٩٨٤.
٣٦. معنى التحليل النفسي، أرنست جونز — بيروت ١٩٨٥.

الفهرس

هذا الكتاب

هذا الكتاب متميز في موضوعه، فريد في اهتماماته، حاول المؤلف به خرق المألوف من الدراسات التي تتناول زعماء وشخصيات عربية من نواحي سياساتهم وانجزاتهم، دون الوصول إلى معرفة دوافعهم النفسية أو الوصول إلى شخصياتهم والوقوف على مكوناتها، وهذا ما أتمه لعشر شخصيات سياسية عربية وهي بالتتابع:

ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي، وأنطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، واللواء محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر، والملك فاروق الأول آخر ملوك مصر في القرن العشرين، والزعيم حسني الزعيم زعيم أول انقلاب عسكري في تاريخ سورية الحديثة، ثم عبد الكريم قاسم الذي قاد الثورة على الملكية في العراق وأصبح أول رئيس جمهورية له، إلى فارس الخوري أول مسيحي يصبح رئيس وزارة سورية لمرات والمدافع الأول في المحافل الدولية عن استقلال بلاده، ومن ثم كمال جنبلاط السياسي اللبناني المخضرم وزعيم الحزب الاشتراكي التقدمي، إلى المشير عبد الحكيم عامر أحد قادة ثورة يوليو ١٩٥٢ والقائد العام للجيش والقوات المسلحة المصرية وفي عهده حدثت هزيمة يونيو ١٩٦٧ ومن ثم انتحاره، وأخيراً أكرم الحوراني الشخصية الكاريزمية في حلبة السياسة السورية.

وفي كل ذلك قدم المؤلف سيرة موجزة لكل واحد من هؤلاء ثم حلل شخصياتهم وأبان ما كان يعتورها من عرض أو مرض أو عقدة نفسية أثرت على سلوكهم السياسي.

الناشر

يطلب الكتاب على العنوان التالي:
دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة
دمشق ص.ب ٣٠٥٩٨
هاتف : ٢٣١٧١٥٨ - ٥٦١٧٠٧١
فاكس: ٢٣١٧١٥٩ - ٥٦١٣٢٤١